# إهــــــــــــــــــداء

 ***لم أنكر فضل أحدهم يوما,لذا كان من الواجب أن أقدم هذا الإهداء البسيط لقطعة روحي التي رفضت ترك يدي من أول الطريق لآخره .و أشيد بفضلها علي .***

***إهداء للصوت الذي كان يشد أزري و يرفع عزيمتي ,للروح التي كانت تثق بي و تدفعني للأمام.***

***إهداء لساعدي الأيمن الذي نفض من على واجهتي غبار الخيبات و تراكم الصرخات...لصديقة الطفولة و مقاسمة الأحلام و الآلام.***

***إهداء لمن مسح ملامح البهت ووثق باني أقدر.***

***إهداء للصوت الذي كان يرتل آيات العزيمة على مسمعي كل ليلة .للأنامل التي مسحت ادمعي فجرا.***

***La siréneاهداء الى :***

***شكرا .***

***أتمنى أن تكملي مسيرتي معي ...وجودك يشعرني بالكمال...بالقوة و القدرة ...وجودك يبصرني حياة أقل قسوة.***

 ***تنويه :***

***<< laSiréne >>***

 ***إسمي المستعار الذي أعرف به بين أقراني .***

***فشكرا لي ...و شكرا لصوتي الداخلي الذي كان الدافع و الساعد الوحيد المساعد لي .***

***نعم أستحق الإهداء لأني الوحيد المتبقي لي .فشكرا لي.***

***مرحبا بكم في موسعة مخيلتي***

 ***قبل أن أتم الترحيب بكم ,يسرني أن اعرف بهذا العمل المتواضع ,الذي يحاكي حكايات حقيقية . قصص لأشخاص عاديين بقوة صبر خيالية, رفضت أقلامي إلا و أن تخط و تحيك قصصهم في أوراق معدودة ,لا تصف الشعور ولا تحاكي التفاصيل .فقط تلخص الانتصارات و الأمجاد.***

***أظن أن هذه الأسطر تحاكي فئة من القراء ,الفئة المؤمنة بالانتصار لا غير. مجموعة المسالمين المناصرين لقضايا الكفاح و البحث عن الذات .***

***تحاكينا نحن فئة المنزجرين في أقفاص الحياة الذين منحنا كل ما عندنا لنحيا ...لنزهر و نشرق .***

***نحن الذوات المتجرعة كؤوس الخذلان و الفشل ...نحن من كانت تقطع بنا حبال الأمل على مقربة من الوصول ...نحن الذين اخترنا أن نسند أنفسنا بأنفسنا و نقف لوحدنا بعيدا عن جميع من قال أننا لن نصل .نحن الذوات الفولاذية اللاتي مشت حافية على درب الوصول و نزعت لحاف الاستسلام من على نفسها .***

***نحن الذوات الصلبة التي لما رطمت في التراب أنتشت و أزهرت و كانت بذور أمل.***

***نعم بذور أمل من بين الركام أزهرت.***

***بعد معرفتكم لهذا أترككم مع حكايات مقاتلين و مجابهين سردوا لي حكاياتهم .***

***حكايات كفاح قاسية ضد الحياة ,المرض,العادات و التقاليد ,الفشل...***

***حكايات أكبر من أن يطويها الزمن .***

***فمرحبا بكم إذا ما أحببتم المتابعة .***

.

***الصفحة الأولى:***

***يبدو أنك قررت المتابعة ...***

***بما أنك قررت المواصلة لا رجعة في ذلك ... دعنا إذن نكف عن زخرفة البدايات التي نعلم جميعا أن جمالها لا يدوم و لنأتي من الأخير .الأخير بكل ما يحمله من حقيقة ,والحقيقة بكل ما تحمله من ألم,و الألم بكل ما يحله من عمل.دعنا نكشف الستار عن الوجه الحقيقي لهذا العالم.***

***دعني الآن أفصح لك عما يجول في خاطري دون قيود و أسرد لك تساؤلاتي اليومية أمام مرآتي المرصعة بكل الأحجار اللامعة...التي رغم لمعانها و بريقها لم تمسح بهتي ..لم تجب عن تساؤلاتي***

***تساؤلات كثيرة لم أجد بعد إجابتها ...***

***أين ُترطم أحلامنا التي لا تتحقق؟ ماذا كنا سنكون لو اخترنا الطريق المخالف ؟لماذا لم يتعطل المنبه ذاك اليوم و اقتصر علينا طريقا من الألم؟***

***لما أنت موجود على هذا السطح الكروي الذي يعج بالحركة و الذي لا يأبه لك ؟ماذا سيُحْدث صوت صراخك في هذا العالم المتناقض ؟***

***\_لا أحد يكترث لنكرة مثلك\_ هذا ما قالته مرآتي يوما.أو هذا ما أجبت به نفسي بالأحرى.***

***العالم لا ينظر لأمثالنا ..نحن الذوات البسيطة البعيدة عن التصنع ...نحن من نمتلك ذخيرة نقدية بسيطة لذا سأختصر عليك الطريق يا صديقي ...إن كنت تود إثبات ذاتك...***

***\_ أولا: حقق النجاح*** ,***و في مراسم إلقاء كلمتك إلعن الجميع.***

***إلعن الظروف ,و الإمكانيات المعدودة و كل من وقف في طريقك.***

***أعدك أن لا ينتبه أحد ...جميع الأيادي منشغلة بالتصفيق ...سيتقبل الجميع كلماتك بصدر رحب فأنت أعلى منهم رتبة و أكثر نجاحا.***

***العالم يا صديقي لا ينظر لنا نحن و أمثالنا من الصغار ...ستطوى و تتلوى. سيكسر الجميع ساعدك لن يشده أحد . لن يهتم أحد لصراخك و لا لحاجتك .***

***المهم في ذلك كيف تسترجع كيانك المفقود.***

***أترى كبر الكون يا صديقي ,بينما أنت الآن تقرأ,كنت في ذات الوقت مما مضى أكتب ...في تمام الوقت الذي تقرأ فيه الآن كانت فيما مضى فتاة عشرينية ساذجة تختار اسم مولودها المستقبلي مع حبيبها الذي يواعد سراً صديقتها المقربة ...في الضفة المجاورة لشقتي المتواضعة فتى ينام و فمه مفتوح..أنهكه وزر الحياة و مسؤولية ما تركه والده المتوفى .في الضفة الأخرى يشتكي الجيران من معزوفة الشاب الأبكم كما لقبه صغار الحي ...الذي ما كان يحدث أحدا نهارا. إنه فقط يمنع نوم الجميع بعزفه ليلا لمقطوعة موسيقية كان يسمعها رفقة حبيبته التي أودى بها الزواج التقليدي ضحية الإنتحار.***

***ما رأيك أن ننتقل معا للضفة الأخرى من درب التبانة التعيس ؟***

***هناك من يغط في نوم عميق يحلم بالمستقبل,بالماضي و بالمستحيل . يتخيل أمه المتوفاة التي لم يبصرها يوما تربت ظهره و تداعب خصلات شعره. يحلم بالأمان ...بالبلاد ...باحتساء القهوة وسط الزحام الشامي تحت رائحة الياسمين وسط معزوفة لفيروز تتغنى بالحب ..بالسلام***

***دعنا من ذلك لنتكلم عن النائم الحافي في العراء, ماذا عن طفل شعر بنقص لم يكن ذنبه يوما و هو يرى أقرانه يسارعون للمدرسة في يومهم الأول رفقة آبائهم ...يناظرهم و كفه خاوية و سنده قد رحل بسبب رصاصة طائشة كان هدفها استيطان أراضي طيبة.. حنونة. تنبع بالصفاء فلم تجد أنقى من صدره لتستوطنه.***

***ما سيحزنك حقا هو بكاء تلك العجوز صاحبة العين الواحدة ساجدة على قميص ابنها الذي خاطته ساجدا... تبكيه كل يوم بين يدي الله بنفس العين الوحيدة التي تبصر بها, تدعوا الله إعادة قرتها الذي لا تعلم أهو في جنات الخلود أم أنه مفقود جريح في أرض الوجود ...ستتألم لصرخات أطفال غذائهم الكيماوي...هذا ما ناظرته من ألم ...لكن مازال في جعبة العالم الكثير منه .***

***دعنا نحط الرحال يا رفيقي في غرفتك اللعينة ذات المساحة الضيقة التي تتقاسمها مع الكثير من الغبار و العناكب أسفل أركانها, أمام تلك الستائر القاتمة.***

***بعد جولتنا الصغيرة دعني أسألك :***

***أمازلت تظن أنك الوحيد المنبوذ هنا؟***

***أظن أن أحزان المرء تتضاءل بعد سماعه لهموم الآخرين.***

***لقد سرد علي جميع من سبق لي ذكرهم حكاياتهم ...منهم من نجا و منهم من أكلته عجلة الحياة***

***الجميع يتألم يا خليلي ...العالم غير عادل, لا يمنح التساوي بالفرص ...لا ينظر للأعمار و لا يهمه الإنكسار إنه فقط يجبرك على الاعتياد***

***و أنت بدورك ستعتاد ...ستعتاد و تصبح بخير.***

***أكمل معي المسير و سنكون على ما يرام,سنلعن الخسائر و نمجد الإنتصارات .حتى و إن لم تكن لنا يظل طعمها ذو جودة تفي بالحياة .عش معي قصصا تضمد جراحك ...تدفعك للأمام***

***قصص بذور "من بين الركام أزهرت", أزهرت رغم قسوة ربيعها .***

***و هذه قصة البذرة الأولى التي رفضت الرطم و استغلت فرصتها و أزهرت***

من على حافة الموت

***من على حـــافــة الــموت***

***الحياة جميلة ...كـــان شعاري يوما ما .***

***كيف لا, و أنا التي حققت حلمي أخيرا...لقد تحصلت على شهادة الباكالوريا خاصتي بعلامة جيدة مكنتني من تحقيق ما أطمح إليه .كان ذلك اليوم الصاخب الذي قضيته راقصة رفقة مقاسمة طفولتي "تيم", كفيلا بأن ينسيني كل التعب الذي تجرعته من قبل.***

***ها أنا اليوم أعد فستاني الأحمر الجريء,بصندال أسود فخم ,و طلاء شفاه شفاف ببريق واضح ليوم غد,اليوم الذي طال انتظاره .أناظر المرآة و أفخر بالمرأة التي أعددتها.***

***بدت لي دقائق انتظار "تيم" طويلة على غرار العادة بعد أن حملت حقيبتي السوداء ,متجهة نحو كليتي ,كلية حلم طفولتي رفقة صديقة طفولتي, نحو "كلية الطب ".***

***دخلت من الباب الكبير المخصص للسيارات,لم يستوقفني صراخ الحارس فشغفي كان يسد ضجيج العالم.***

***تحقيق الأحلام ليس بالأمر الهين ,أن تحقق طموحك ليس بالأمر السهل أبدا ,ضياع الأحلام محطم حقا .***

***قد تعاديك الظروف ...القدر...الإمكانيات الضئيلة,أو حتى موقعك الجغرافي .قليلون هم من يحققون أحلامهم ,لذلك كنت ممتنة حقا لما وهبني إياه الله .***

***دخلت راكضة تماما كقبل عشر سنوات مضت ,أجري بالسرعة التي كانت تمكنني من اللحاق بعربة بائع الآيس كريم , كنت أحمل بيدي اليسرى فستاني كي لا يعيقني.إستوقفتني القوائم التي كانت تحمل أسماء الطلاب. بسبابتي المرتجفة رحت أفتش عن إسمي "روجان " "روجان" ...و أنا أعيده بصوت مرتجف كوني لم ألحظه بعد أن مررت به ما يقارب السبع مرات في قائمة لا تحوي الكثير من الأسماء .إنه النجاح يا صديقي يخرج الطفل الذي بداخلك و يمنحه حرية التصرف بصبيانة دون قيود البرستيج و الكبرياء .***

***مرت الأيام ,و حرت أسير بخطى ثابتة نحو النجاح,غير آبهة للتعب و المصاعب ,واضعة أمامي ذلك الزي الأبيض كدافع يجبرني على مواصلة المسير لتحقيق حلمي ,الذي بالأصل كان حلم أبي بعد أن أغلق آخر زر لمئزري,في أول يوم للدراسة,قائلا: لقد ناسبك الأبيض يا دكتورة أبيها "***

***من يومها قطعت عهدا أن أحقق أمنيته.و وفيت بعهدي ,لكنه لم يف هو بما وعد . لم يهدني السلسال الذي حلمت به لثمان عشر سنوات طوال,إختار طريق النعيم و ذهب ليقابل الله ,قبل أن يشبع عيناه العسليتان من وحيدته بنفس المئزر .***

***الحياة تمنح الكل القليل فقط .بينما كان الجميع يتمنى ما تحصلت عليه ,كانت تنقصني غمرة حنان َأَبـَوي فقط ,و كنت سأستغني عن الحياة بما فيها.***

***لكني كنت أشكر الله لمنحي أشخاصا جعلوا مفهوم الحياة أقل ثقلا على كاهلي,لقد كانت يدا أمي الدافئتين كفيلة بأن تزيل بهت الحياة, و صقيع القسوة في الخارج ضمن مجموعة من البرغماتيين المتسابقين في مضمار الحياة للحصول على الأفضل ,الجاعلين شعارهم: "الغاية تبرر الوسيلة".***

***منحت يدان أقل دفئا و أكثر قوة تشدان أزري و تمسحان أدمعي , "تيم " التي كانت تقرأ ما يجوب في فكري دون أدنى كلمة .التي كانت تنتشلني من صخبي في ساعات الضحك الهستيري,التي كانت تعي أن صخبي ناتج خطب ما.***

***منحت يدان أكثر خشونة و أكثر برودة و قوة ,منحتني الحياة "الأخ و الأب و الإبن و الرفيق و كل ما يمكن تعداده ,"سجيد" رفيق دراستي و بطل طفولتي ,كنت أراه الدرع الواقي و أعجب به كل مرة أكثر و هو يشد يدي راكضين نحو المنزل بعد مشكل دائما ما كنت أنا سببه .***

***منحتني الحياة أربع أنامل بمخالب حادة لم تؤذني بها يوما .قطتي السوداء المبقعة بالأبيض مقاسمة صحني و فراشي ,و الشاهدة على كل أدمعي . الوحيدة التي سهرت معي الليل بأكمله لمدة طويلة.***

***كنت محضوضة بهذه العائلة التي منحني إياها الله .لم أتذمر يوما لأني أحببت فعلا ما أملك .***

***"سجيد" كان يكبرني بثلاث سنوات هو الآخر اختار امتهان الطب,كانت تجمعنا نفس الكلية .***

***"تيم" كانت أكثرنا حبا للحياة,اختارت أسهل طريقا للتخرج لتبدأ رحلتها مع العمل.***

***و استمرت صداقتنا و نحن نبصر مرور الأعوام,إنه العام الثالث و لم يتبقى إلا أشهر قليلة على حفل تخرج "تيم",أما "سجيد" فقد قطع نصف الطريق ,فهو يقارب نهاية عامه السادس.***

***- يوم الإثنين***

 ***كان الجحيم بالنسبة لنا, دوامان كاملان لا مكان فيهما حتى للتنفس ,بعد انتهاء الفترة الصباحية حملت كتبي التي كان وزنها يقارب وزني.اصطحبت معي كوب القهوة الذي كنت مجبرة على شربه متجهة لأقابل "سجيد" و أساعده على اختيار هدية تخرج "تيم" .حملت حقيبتي كعادتي و على غير العادة و عند خروجي من الباب الرئيسي وجدتني ألملم شتاتي و أعتذر لشاب مسرع اصطدمت به عبثا و سهوا مني .***

***- آسفة ..أنا حقا آســ..***

***قاطعني قائلا بكلمة واحدة فضة لا غير :***

***-انتبهي***

***حملت ما سقط مني,ورحت ألعنه طول الطريق .لقد كان فستاني المفضل و الآن صار يعبق برائحة القهوة التي لم أحبها يوما.بالإضافة لكوني أضعت ساعات دوام مهمة و راح ضحية فعله "سجيد" الذي اصطحبني لتغيير ما اتسخ من ملابسي.***

***ملامح تعجرفه ظلت عالقة في رأسي و لن يمر الأمر \_***

***هذا ما كنت أردده طول الطريق.***

***اتجهنا للمنزل, و بعد أن غيرت ملابسي قررنا أنا لا تكون وجهتنا الرجوع إلى الكلية ,لأول مرة أكتفي حقا منها. اتجهنا نحو حديقة قريبة من منزله ,ابتاع كعادته كوب قهوة و رحت كعادتي أبحث عن بائع الفشار تماما كقبل أربع سنين طوال .في نفس المقعد تحت نفس الشجرة أمام نفس بائع المثلجات صيفا,و بائع غزل البنات شتاءا.كانت الأرصفة تذكرنا و الباعة تعهدنا.نحن اللذان كنا نؤمن بأسطورة "توأم الروح " . هي أسطورة قديمة مفادها أن الإنسان كان ذو أربع أرجل و أذرع و وجهين لكن بقطعة أيسرية موحدة .حيث يروى عن الإنسان ذو الوجهين أنه يملك قلبا واحدا.***

***لكن الرموز من غضبها شطرته نصفين, ما جعل البشر يبحثون عن نصفهم الثاني و توأم أرواحهم.***

***كان "سجيد" من شاكلتي,نتبادل الموسوعات,نعشق نفس النوع من الروايات و نفس النوع من النباتات ,نحب القطط و حلمنا الزي الأبيض و الجري في رواقات المشفى. نشجع نفس الفريق و نستمع لنفس الأغاني . الأفضل في الأمر لم نكن نؤمن بالحب أبدا.***

***كنت أحبه حبا خاصا خالصا ,كنت أجد حاجتي عنده و عندما أظل الطريق ,كان الوحيد الذي يجدني. فعلا وجوده جعلني أصدق أسطورة توأم الروح فقد كان فعلا متممي,كان توأمي حقا.***

***لم يصعب علي العالم يوما,كان ساعدي و مساعدي ,كنت معه أشتم رائحة الأب و أحس بغمرة الأخ و حمايته ,و بغيرة الحبيب .كان الكتف الذي أذرف عليه الدمع و منتشلي من الحطام .***

***الصداقة لا تقدر بثمن ...الصداقة لا يمكن أن تستبدل بالحب ...كنا خير مثال للصداقة بين المرأة و الرجل .***

***مرت الأيام...روتـين يومي قاتل .تعب و إجهاد .***

***هذا ما يتطلبه تحقيق الأحلام,أن تكد الأيادي دون توقف و ان يسعى الفرد دون تأفف,دون إحساس بضياع البهجة و فناء الشباب.هذا ما خلقنا لأجله و هذا ما كنا نفعله تماما .كنت أحاول أن أتصدر دفعتي كل مرة,و لم يبخل "سجيد" علي بخبرته ,و نصائحه في كل شيء .***

***كانت الخطوة التي يسبقني بها و الفارق العمريَ بيننا كفيلا بأن يريني الطريق الصائب.و يساعدني على تجاوز كل ما يعرقل مسيري .حملت مدونتي التي أظن أنها إذا ضاعت مني حتما سأنسى أسماء الجميع و اتجهت للجهة المقابلة التي يدرس بها "سجيد" عله يجد حلا لمجموع الواجبات الممنوحة لي.لكنه و على غير العادة لم يفلح بذلك. جلست انتظره بعد ان ذهب ليطلب يد العون من زميل له. بينما الشرود يحكم قبضته علي,قاطعني صوت ضحك" سجيد" في الرواق على مقربة من الباب .كنت مبتسمة لسماع صوت صخبه اللامتناهي. لكن ابتسامتي لم تطل بعدما رأيت زميله الذي لم يتعرف علي حتى .***

***لاحظ "سجيد " قلقي و انفعالي بعد رفضي لمصافحته . و بصوت تساؤلي خافت :***

* ***"روجان" "أركان" هل تعرفان بعضكما مسبقا؟***

***لم يمنحني فرصة الإجابة :***

***\_ لا,أنا لم أرها من قبل هنا ,هل تدرسين هنا ؟***

***زدت غضبا و انفعالا و أجبت "سجيد"***

***\_ انه من سكب كوب القهوة علي الأسبوع الفارط , و ارتطم بي عند...***

***قاطعني :***

***\_ آه ...لقد تذكرت الآن ,و بصوت ضاحك ساخر : بعد هذا اللقاء الحماسي لا أظنني سأنساك مجددا آنسة "أركان".***

***خرجت غاضبة و لم أكف طول الطريق عن شتمه, حتى ملت "تيم" من ذلك ووضعت سماعات أذنها متناسية صخبي الذي كان يزداد بمرور الوقت .في حين استغرقت الليل بطوله باحثة عن جواب لسؤالها بانفعال : هل أغضبك سكبه القهوة على فستانك ...أم عدم تذكره لك ؟***

***لم أعرف حقا السبب الرئيسي . لقد اعتاد الجميع على تذكري من الوهلة الأولى , من اللقاء الأول . شعرت بأنه عبث بأنوثتي حقا .***

***من يومها صرت أقابله يوميا, لا أعرف سبب ذلك .هل القدر يجبرنا على لقاء أشخاص ستكون لنا حكايات مستقبلية معهم ؟ أم أنهم اعتادوا المرور بنا يوميا و نحن من اكتشف ذلك متأخرا ؟***

***ما كان يعبث بكياني كل مرة نظرته التي تعلو ضحكة جانبية ساخرة, كنت أشغل نفسي و أغير طريقي حتى لا تعبث ملامحه بذاكرتي ليلا.أنا التي ترفض التفكير في أي شاب .كنت أؤمن أن بداية كل الأشياء العميقة هو التفكير .و أن بداية كل تفكير هو اللقاء.لذلك امتنعت عن زيارة "سجيد" علني ألغي فرصنا في اللقاء.***

***صباح يوم الثلاثاء...***

***كنت أحبه لما يحمله لنا أسبوعيا من تجديد يكسر أمتعتنا الروتينية بكتابات جدارية تضعها الإدارة عبارة عن مسابقات و ما شابه ذلك.***

***مسابقة اليوم المعلن عليها ما بين الكليات,اختيرت الأقسام الأعلى منا, و اختيرت كليتنا لتنظيم هذا اليوم الواعد.أسرعت إلى أقسام السنة السادسة أبحث عن "سجيد" و ما أن اختير ليمثلنا متناسية قرار عدم الذهاب إلى هناك مجددا.***

***لم تتوج فرحة دعوتي للحفلة بالاكتمال بعد أن أخبرني "سجيد" بعدم اختياره لخوض المسابقة.***

***بل اختير ليكون ضيف شرف مثلي لا غير.بعد أن اختارت الكليات أربع طلبة من النخبة من سنوات مختلفة تكون شاهدة على العروض الملقاة و تطرح أسئلة حول ذلك.***

***بعد محاولات جاهدة مني اقتنع "سجيد" أخيرا بالقدوم للحفل, و بدأ كالعادة بانتقاء الفستان المناسب كهدية لي بعد اختياري ضمن ضيوف الشرف.اختار فستانا ازرقا فاتحا قريب من لون عيناي اللتان كان يحفظ تدرج لونهما بدقة,فستان طويل بربطة خصر سوداء طويلة تتدلى فوق مقربة من حذاء أسود ذو كعب متوسط.***

***اختارت تنظيمية الحفل أن يكون المشروع حول "سرطان الثدي"***

***في مجملها حملة تحسيسية و عرض للأعراض و ما الى ذلك .***

***أعددت قائمة طويلة من الأسئلة التعجيزية.اخترتها بعناية فائقة لمدة أسبوع كامل,و التي سأوجهها للكليات الخصوم عله يكون لنا دور في جعل الفوز من حليف كليتنا.***

***الساعة السادسة و النصف...***

***نهضت مفعمة بالنشاط دون مساعدة المنبه.***

***لبست ما اختاره صديق عمري لي و الفرح يغمرني و كأنها أول مرة أرتدي فيها فستانا.***

***سدلت شعري ,و حملت حقيبتي مسرعة وسط دعوات أمي لي بالتوفيق.***

***اخترت مقعدا في المقدمة كوني أول الحضور.رتبت أوراقي المعجوقة بالأسئلة و رحت أناظر قدوم الخصوم بلهفة .***

***وصل "سجيد" متأخرا كالعادة , جلس بجبني في المقعد الذي حجزته له.***

***دخل مدير كليتنا و رحب بالجميع تحت تصفيق الحضور,دخل المتنافسون و جلس كل منهم في طاولته المخصصة .منحت لهم أوراق الإمتحان الكتابي تحت نظرات ترقب الجميع .***

 ***تصدرت كليتنا الترتيب بخمسين نقطة تليها كلية أخرى بثمان و أربعين نقطة.كان الفارق ضئيلا جدا, الأمر الذي عكر صفو فرحنا و الأمر الذي جعلنا ننتقي أسئلة صعب الإجابة عليها لنوسع الفارق في مرحلة الأسئلة الشفوية.***

***دق الجرس معلنا بداية جولة الأسئلة الشفوية التي يلقيها المختارون من النخبة الحضور . كنت أحتفظ بأسئلتي للكلية التي حصلت على نقاط تقارب نقاطنا علنا نزيد حجم الفجوة بين التحصيل .***

***رن جرس إعلان مرحلة كليتنا***

***تقدم الطلبة الواحد تلو الآخر و أخذ كل واحد منهم محله على الطاولة المقابلة للجمهور.***

***شد "سجيد" قبضته بيدي محدثا إياي بنبرة حادة :***

***\_ "روجان" إياك أن تقترفي أي غباء ...من فضلك***

***كانت قبضته تزداد قوة بمرور الوقت أنا التي فقدت هدوئي بعد لمحي لقائد المشروع ,انه نفس الشخص المستفز .***

***قاطع موجة غضبي مسير الحفل***

***\_ شكرا "أركان" ,حان وقت الأسئلة الآن .هل من متكلم ؟***

***بكل ارياحية انتشلت يدي من قبضة "سجيد" المحكمة ,و وسط ذهول كل من ينتمي لكليتنا و بصوت جريء : أنا "روجان " طالبة السنة الثالثة لدي الكثير من الأسئلة .***

***كان الجميع ينظر لي نظرة مفادها وجوب الصمت ,لكني لم أكترث لأحد ,و انهلت عليه بالكثير من الأسئلة التي كادت تقودنا للخسارة ,لولا "أركان". "أركان" الذي كان يرمقني بنظرة السخرية و يجيب عن كل تساؤلاتي دون أدنى جهد منه.***

***انتهت أسئلتي و لم أقدر على مجاراته ,كان بهدوئه و استخفافه المعهودين يجيب عن أسئلتي دون أن يهتز له رمش.***

***ساد صمت رهيب, كنت أسأل و هو يجيب ,و كأن الجميع منح لي زمام السؤال و كل من معه منحه زمام الإجابة.***

***انتهت أسئلتي العشرون و لم أتمكن من إحراجه كما كنت أسعى ,كما بدأت أتحسس ألما في يدي اليسرى التي تورمت من ضغط "سجيد" عليها عله يضع لي حدا أنا و أسئلتي اللامتناهية .***

***بصوت ساخر:***

***\_ آنسة الصف الثالث عل هناك مزيد من الأسئلة؟.***

***ووسط صمت الجميع أعلنت نهاية المرحلة و بداية المرحلة الموالية للكلية الأخرى.***

***إنهال كم من طلابنا عليهم بأسئلة تعجيزية سعيا منهم لتكبير فجوة التحصيل النقطي بين الكليتين.الأمر الذي نجحوا به لتعلن أخيرا نهاية المسابقة بفوز كليتنا .***

***كان "سجيد" أول من يغادر الحفل دون أن أدنى كلمة.لم يكلمني ليلا و لم يفتح هاتفه ,سد جميع طُرقي المؤدية إليه.***

***لم أكن أعي الخطأ الذي اقترفته حقا.كل ما علمته أنها المرة الأولى التي يفلت بها يدي بهذه السهولة بعد سنوات طوال رجعت للبيت وحدي.انتظرت صباحا دقدقة الباب لكنه لم يحدث .***

***لم يكن "سجيد "وحده من أتخذ موقفا مني .كان الجميع يناظرني بعتب فقط وقتها أحسست حجم الخطئ الذي اقترفته.***

***\_أظنني بالغت كعادتي... لم يكن الأمر يستحق كل ذي فعلته.***

***رحت أقول هذا في طريقي نحو بيت "سجيد" بعد تغيبه عن الصف. لأجدني في اليوم الموالي أطلب العفو من الجميع لتهوري ,أو بالأحرى أنا لم أندم حقا على فعلتي, كل ما بالأمر أنه لم يكن بمقدوري استيعاب الطريق بدون رفيق عمري ,لقد بدا لي طويلا و موحلا حقا.***

***عادت المياه إلى مجاريها و بدأ الجميع بنسيان ما حدث.و عاد كل شيء لطبيعته ,لم أعد أتحاشى نظرات "أركان" الساخرة و أصبحت شيئا عاديا بالنسبة لي .كما أنه صار صديق مجموعتنا . لم يكن يعنيني ذلك حقا فقط أنا لم أعد حاقدة عليه بعد الآن.***

***الخميس...السادسة صباحا...خمس اتصالات لم يتم الرد عليها...***

***يوم تخرج" تيم",كانت تعاتبني على تأخري على الساعة السادسة صباحا.***

***جميل أن تمتلك صديق لا يواجه مشكلة في الاتصال بك في أي وقت.كان يعجبني جدا استشارتها لي في أبسط الأشياء .كان ذلك يحسسني بالأمان و الانتماء.***

 ***أحب بساطتها في الحياة .و أعجب بنظرتها و بنزعتها التفاؤلية.كنا متناقضتين جدا, كنت معجبة ببكائها عندما تنزعج .و عدم اكتراثها لصوتها العالي عند الضحك .كانت بارعة في الكشف عن مشاعرها بدقة عكسي تماما .أكثر ما أحبه فيها جلوسها على قارعة الطريق فوق أي رصيف أمام أي منعطف .لم تكترث يوما لبائع الخضر الذي ما عاد يفاجئ بصوتها الصاخب و ضحكها اللامتناهي.***

***اتجهت للحفلة رفقة "سجيد" الحفلة التي لم و لن أنساها ما حييت.كونها منطلق حياة جديدة بالنسبة لي. لقد كانت نقطة التغيير في حياتي الروتينية التي لم أكن أودها يوما أن تتغير .التقت "تيم" بفارس أحلامها كما كانت تسميه.ثم إن رحلة العمل التي بدأت بها أصبحت تأكل ساعات طوال من يومها نهارا و أصبح زوجها المستقبلي يأكل ما تبقى لها من ساعات ليلية في الحديث معها. لقد سرق مني ملكيتي الخاصة.***

***لم يكن هذا التغيير الوحيد, من يومها تعرفت على "أركان" بشكل أقرب بعد أن طلب مني حسابي على الفايس بوك . كان ذلك شيئا عاديا, الشيء الملفت في الأمر أني بدأت أتعمق به حقا. لقد عانى اليتم الذي عانيته يوما . وراء ذلك الستار الذي يرتديه المليء بالسخرية...الكبرياء..النجاح ...كان هناك خراب عارم يهتز داخله .كنت أحس بكلماته أثناء وصفه لأبيه و ملامحه التي تكاد تضيع منه لولا تلك الصورة التي كانت على مقربة من أن تمسح. و التي لم يرها لأحد قبل أو بعد حبيبته الأولى. حبيبته التي فضلت طريق الرخاء باختيارها زوجا لن ينفق سنوات طوالا في الدراسة .كلمني عن حياته و أبصرته أقل تعجرفا عما يظهر عليه في الواقع.التقى بأمي و أصبح صديقا حقيقيا لي يومها .***

***اهتز داخلي يوم تناول فطائر أعدتها أمي و هو يقبل يديها قائلا أنه اشتم رائحة الأم التي لم يشبعها يوما ,رائحة الأم التي وزعت حنانها على أبنائها الثلاث من زوجها الجديد.ما تزال تنهيدته عالقة بأذني:***

***\_ اليوم و بعد زمن طويل فقط أحسست بطعم الأمومة.***

***قالها و عيناه مملوءتان بدمع أعلم جيدا حرقته.***

***لم يكن هذا التغير الوحيد..."سجيد" هو الآخر غيره الزمن.لم أعد أول أولوياته كالسابق,الحياة تسلبنا أهميتنا .يتضاءل بريق الإعجاب بمرور الزمن و نصبح شيئا عاديا, كعلبة موسيقى تقليدية كانت يوما ما أهم ما يملكه أبناء زمنها .***

***صعب أن تحاول القضاء على فراغ يصنعه الطرف الآخر بدون سبب.الأصعب في الأمر هو محاولتك البرهنة للطرف الآخر أن مكانته لم تهتز و أن أحدا لن يأخذ مكانه أبدا.***

***الثالث و العشرون سبتمبر ...الساعة العاشرة و النصف...***

***رسالة كالعادة من "تيم" كانت تسابق الزمن في تهنئتها لي بعيد ميلادي خوفا من أن يسبقها أحد ما .رسالة طويلة كالعادة تدعو الله فيها بأن يطيل بعمري لليوم الذي أصاب فيه بالزهايمر,و الكثير من الكلمات التي لا أحد يقدر على فك شفراتها غيري.***

***الرابع و العشرون من شهر سبتمبر...الساعة الثانية عشر***

***اهتز الهاتف ,حملته مسرعة و كلي ثقة أنها رسالة "سجيد" ككل عام في وقتها تماما.***

***لكن شعوري لم يصب لأول مرة.لم أكن أعلم حقا أهو من خان ساعته أو خانته الذاكرة أم أن حدسي من خانني.كانت رسالة غير متوقعة من "أركان".***

***لقد كنت مدمنة تفاصيل...و نجح هو في التسلل لتفاصيلي.في وقت قياسي عرف الألوان التي أحب .أهداني في اليوم الموالي باقة توليب بالألوان التي أفضلها مع عقد فضي يحمل نجمة زرقاء قال أنها بتدرج لون عيناي ,لكنه لم يفلح بذلك وحده "سجيد" الذي أبصرها سنينا طوالا من يجيد فعل ذلك. إنها التفاصيل ليس الجميع يدمنها.***

***أهدتني"تيم" كوبا يحمل اسمي و رمز المالانهاية. لم أسمح لأحد الشرب منه يوما.***

***أهداني "سجيد" صبارة صغيرة مكتوب على علبتها "لا تنسي سقيي, رغم قوتي أحتاج الماء"***

***كان يبدع في انتقاء الكلمات دائما. أحسست يومها أنها رسالة مباشرة لي,لقد كان يحس أن "أركان" أخذ مكانه.لم يعلم أنه كان يحتل مكانة لن ينجح أحد في انتزاعها من قلبي.***

***توالت الأيام...و صرت أمتلك سندا آخر و بدأ "سجيد"بتقبل الوضع .صرنا نتقاسم الوقت و الهزائم و الانتصارات.لقد صار "أركان" جزءا مني .و أحسست أن الجميع على حق, لقد أحببته فعلا.***

***أحببت نجاحه في كل شيء يفعله...أحببت تجاوزه لكل خسائره ,أعجبت حقا بتناقضه معي في كل شيء.كان يحب أكثر فريق أكرهه, بينما أحببت الأبيض أحب هو الأسود,كان يحب الأفلام ولم يقرأ رواية يوما.كان يحب المصارعة و يمارسها أكثر رياضة أنبذها.كنت أؤمن أن الحياة لعبة بازل.***

***تجمع القطع المكملة لبعضها و ليست القطع المشابهة لبعضها. عندما تحب شخصا يناقضك ستفهم سر انجذاب المغناطيس عكس اللون .***

***لقد أحببت جميع الأشياء التي يحبها,رغم إنكاري لحبه أمام الجميع إلا أنني وقعت ضحيته حقا.أيقنت ذلك بعد محاولاتي الفاشلة في الهروب منه.أنا التي كنت أغادر الأشياء التي تطرق باب قلبي لم أفلح هذه المرة, لقد تسلل دون استئذان ,لأول مرة وجدتني أهتم و أشتاق لأحدهم.لأول مرة تعلمت العيش بأحدهم و العيش لأجله.***

***تجاهلت أقوال "تيم " و لم أرغب بالاعتراف بحبه حقا. كما تهربت من قولها أن "سجيد"يحبني.***

***لم يكن كذلك هو فقط كان يخاف كسري. "سجيد " الذي كان يبصر "هاجر"بعينا "أركان"***

***حبه الأول.***

***مرت الأعوام...***

***عام حافل..بعد أشهر قليلة موعد تخرج "سجيد" و "أركان" و حان موعد زفاف "تيم".***

***فجأة وجدتني أكمل مسيري لوحدي.***

***لقد حان موعد حفل التخرج***

***اليوم لأول مرة أختار فستان الحفل لوحدي دون تشاجر "تيم" و "أركان" حول اللون.كانت أمي مدعوة للحفل الذي كان يعني الكثير.انه الفستان الأسود الكلاسيكي الذي كان الأحب على قلب"أركان"***

***و الذي سعيت جاهدة للاحتفاظ به.بعد أن شهد على أجمل يوم بحياتي حين تقدم "أركان"لخطبتي يوم تخرجه,اليوم الذي اعترف فيه أمام الجميع بحبه لي.***

***الحب الأول...صادق فعلا ...فرحه لا يوصف.***

***كانت عيناي تقولان ما عجز لساني عن التلفظ به.أن تكوني زوجة حبك الأول شيء رائع حقا.***

***من يومها بدأ "أركان"تعداد الأيام و الأعوام التي أنهي بها دراستي .***

***فتح عيادته الخاصة على مقربة من بيتنا.كانت الفرحة تصم أذناي عن صخب الخارج...بت أناظر الأعوام لتمضي حتى نجتمع ببيت واحد.***

***انشغلت "تيم" بحياتها الجديدة ,و وظيفتها الجديدة التي كسبت منها أصدقاء جدد.***

***"سجيد" و بعد تخرجه قرر مغادرة المدينة ليباشر عمله الجديد ,دون أي وداع. الأمر الذي جعلني أوقن تمام اليقين بعودته.***

***كنت أسقي الصبارة موقنة أنه سيشتاق يوما و يرجع و نقلب معا البوم صور الطفولة.***

***أن تفقد صديقا جيدا دون سبب...أمر مؤلم حقا...تا الله يفتت الروح.***

***انه عامي الأخير...***

***الثالث و العشرون من جوان...***

***يوم تخرجي...بعد أن أصبحت أيام التخرج تعني لي الكثير.***

***بعد تمام الحفل الذي لم يتصف إلا بالبهت لتغيب "سجيد".رفيق عمري الذي أعددت معه تفاصيل هذا اليوم فيما مضى...يوم طويل في العجلة الدوارة في مدينة الألعاب..ساعات طوال في السينما...***

***كله لم يحدث.***

***اصطحبني "أركان"إلى البيت الذي اختاره ليرد القليل من بهجتي. و اختار موعد الزفاف الذي كان بعد خمسة عشر يوم فقط.***

***قررت تجاوز كل شيء و البدء بحياة دون ذكريات.***

***اليوم أنا أتمعن ألبوم صور زفافي رفقة أمي و زوجي لا غير.أتذكر التفاصيل ...لم اعهد"تيم" بذاك الهدوء أبدا.كان حضورها باهتا جدا.لم تمسك بيدي كالعادة حين أهدتني "هاجر" العقد الذي لم اعلم حكايته و هي تهنئ حبها الأول.لم يشتتني حضورها أبدا ,قبضت "أركان" من فعلت ذلك.كانت قبضته تزداد قوة دون علم منه. قبضة اليد تحكي الكثير هذا ما أرقني.***

 ***لم تكتمل فرحتي و أصدقاء عمري تخلو عن الكم الهائل من الوعود التي قطعناها."سجيد" مقاسم حياتي لا أظن أن الدعوة وصلته حقا .لا أعلم أراضيه و لا الأشياء التي هو فاعلها الآن .***

***أيام لم أعد أعلم تاريخها كالسابق...***

***لم أعد أمر ببائع الخضر الذي اعتاد صخبي رفقة مقاسمة أحلامي.***

***كبرت الصبارة و لم تعد بحاجة للماء الكثير.***

***صارت أولوياتي البيت فقط...كانت أمي تحيك الأقمصة كعادتها,كنت أجالسها و معي كوب قهوة كغير عادتي.أحببت القهوة التي لم أطق رائحتها يوما,كنت أشربها في كوب الحليب الذي أهدتني إياه "تيم".***

***"تيم" التي وعدتني أن نتقاسم الغرق للأبد,لا أعلم لما نجت بمفردها.***

***كانت حياتي مثالية.***

***أنا فقط لم أعد أعلم من زار بيت "تيم".انا فقط اشتقت لمللها من حديث عمتها"زهية" التي كانت تجالسها لساعات طوال.لم أعد أعلم هل لبست قميصها الأصفر الذي زال إعجابها به فور رجوعها من السوق لا أعلم ...كانت تؤرقني التفاصيل التي لم أعد أعلمها عنها.***

***أنا فقط***

 ***لم أعد أعلم كم سجارة يدخنها "سجيد" في اليوم و لا عدد الأكواب التي يكسرها بهد خسارة فريقنا المفضل.لم أعد اعلم عدد أكواب القهوة التي يتجرعها نهارا و لا عدد صفحات الروايات التي يقرأها ليلا.***

***أنا فقط***

***خسرت القليل من الأصدقاء و الكثير من التفاصيل. الموجع في الأمر أنني خسرتهم دون سبب. كل ما أردته أصدقاء يكسرون قاعدة النهاية الحتمية التقليدية ,كنت أبحث عن صديق يفهم سكوتي و يجيد حياكة البدايات لا غير,كنت أحتاج أشخاصا لا يستصعبون صنع المقدمات و لا يعتبرونها تقليلا لهم .أمي هي الأخرى لم تسمح لي بتجاوزهم حقا...كانت تذكرني بهم عند إعداد أطباقهم المفضلة ,لم يذهبو من ذهني يوما كانت علبة عطر أو اسم مماثل تذهب نومي ليلا ,روايات ,إطارات صور ,ألوان و حلويات ,حتى الرموز (...) كانت تستوقفني في منتصف الصفحات . كانت أمي تذكرهم***

***عند حياكة القمصان بألوانهم المفضلة.كانت تنفض غبار الذكريات و تفتح جراحا دون علم منها.***

***أن تخسر صديقا جيدا يعني أن لا يعود هناك معنى لمباريات الكلاسيكو.***

***أبصرت نفسي اليوم في غربة داخل أرض الوطن... ضاع مني البريق الذي كان يشد ناظري للأشياء.صار كل شيء باهتا حتى أشيائي و أشخاصي المفضلين بدو لي باهتين للغاية .***

***فتحت عيناي على شخص لم أُعده يوما...لم أمتهن الوظيفة التي ضاع عمري لأجلها.***

***حتى أنني لم أرزق بطفل يحمل اسم أبي.أنا فقط اخترت الانزواء في البيت و ممارسة طقوس المرأة العادية التي تمتهن البيت لا غير.***

***يوم ما...لم تعد تهمني التواريخ ...أو بالأحرى لم أعد أتذكر***

***فتحت عيناي على فتاة بالزي الأبيض .نعم إنه نفس الزي ...زي الحلم الضائع.***

***نظرت على مقربة لجارتي "سعاد" التي أسعفتني بعد سقوطي أمام بيت منزلها.***

***"سعاد" صديقتي الجديدة التي تمتهن العائلة و البيت.الصديقة التي ما كان ينطفئ ضوء غرفتها ليلا تصلي قليلا و تدعوا كثيرا . كانت تدعو الله أن يرزقني طفلا أملئ به ذراعاي الخاويتين.***

***تعكزتها اليوم راجعة من المشفى تسرد لي يومياتها الروتينية بكل حب.كانت تحاول شغلي عن الانتباه لعيادة "هاجر" التي فتحتها وسط الحي على مقربة من عيادة"أركان".***

***عملت الفحوصات اللازمة بعد إصرار و قلق شديدين من "سعاد"و رحت أزاول مهنتي المنزلية و كأن شيئا لم يكن.***

***يوم خريفي مشرق...***

***نهضت من سريري الذي مل جلوسي به,أعددت الحلوى المفضلة لـ:"أركان" مع قليل من القهوة.***

***سدلت شعري تماما كما يحب,وضعت العطر الذي كان يميزه من بين الكثير من قوارير العطور,ارتديت الفستان المفضل لديه و قررت مفاجأته بمكتبه لأزيل القليل من ملل شكوى المرضى.***

***زاد فرحي بعد دخولي و مروري بقاعة الانتظار التي كانت خاوية, أنا التي كنت أتخيل أنني سأنفرد به في مكتبه بعيدا عن ضغوطات العمل. لكن سرعان ما تثاقلت خطواتي لعدم إيجاد المستقبلة,رحت أصارع قدماي اللتان ثقلتا و لم تعودا قادرتين على مواصلة المسير تحت صوت ضحكات"أركان" مع همس صوت نسائي.لم أكن أريد الذهاب بذهني بعيدا,فقط قررت تكذيب مسامعي و إقناع نفسي أنها مريضة ما...ربما زميلة عمل...إحدى قريباته لا غير...لكن صوتا داخليا نسائيا منعني من المغادرة,إحساس لا يكذب أجبرني على التأكد.***

***رجعت بخطى متثاقلة و أنامل مرتجفة لا أعي أين أذهب و إلى من ألجئ, لأجدني أدق باب "سعاد"المرأة البسيطة الوحيدة المتبقية لي.لم أكمل سرد القصة لها لم أكن أملك القوة الكافية لأصف لها ثغر زوجي الباسم المشبع بالسعادة مع حبه الأول لأجدني أنقل على جناح السرعة للمشفى.***

***عجزت عن وصف آلام بطني للطبيب التي ما عادت تمزق أحشائي ,و كأن بي ألما غطى جميع الآلام الأخرى. لم أعلم كيف يشرح الإنسان خيبته ,هل وصل العلم لاكتشاف علاج للشعور بالنقص؟***

***أصر الطبيب على عمل فحوصات جديدة و الإتيان بها بأقرب وقت. يبدو أن الغثيان و آلام البطن لم تكن أعراض حمل.و كأن الأخبار السيئة اتفقت على القدوم هذا اليوم.***

***لم يعد كل هذا يهمني فقط رحت أنبش عن الحكايا الخفية التي كانت تقع على مرأى من أعين جميع من بالحي عداي.***

***إنها الثقة ...تجعل منا كتلة من الغباء.***

***بكامل أناقتي التي أعددتها صباحا ,استقبلت بها "أركان" مساءا. كنت أقاوم ازدحام الأفكار داخلي,كنت أجابه الانكسارات التي كانت تملأني فقط لأظهر بهذه القوة.كنت أبرع في ذلك و كان يبرع هو الآخر في تأدية دور الرجل الحنون المقتنع بأنثى واحدة بحياته.***

***صار لي عمل آخر غير الأعمال المنزلية.صرت أعد الزمن الذي تقضيه "رحيل" داخل عيادة حبيبها الأول.كنت أستمر في لعب دور المغفلة.أتقنت الدور فعلا لأني كنت مغفلة لبرهة من الزمن.***

***الثالث و العشرون من ديسمبر...***

***استلمت نتائج فحوصات لم يصعب علي قراءتها أنا التي أنفقت عمرا لأمتهن عملا هدفه القضاء على أمراض لا علاج منها.لكني رغم ذلك اتجهت للدكتور .إننا نصاب بنوبات غباء عندما يتعلق الأمر بنا نعجز عن حل مشاكل بسيطة, فجأة نصبح أميين بكل معنى الكلمة.***

***لم أنصدم فعلا عندما أخبرني الطبيب عن مرضي الذي اكتشفته مسبقا.الأمر الذي صعب علي هو إخبار أم بإصابة وحيدتها بالسرطان , المرض الذي يِؤمن الجميع بأنه صانع نهايات .صعبت علي فعلا دمعتها . أنبني ضميري حقا ...لأول مرة أكون سبب نزول دمعها.***

***أنا فعلا لم أحزن لإصابتي بالمرض...***

***أنا اليوم و بعد زمن طويل أضع رأسي بين ذراعي "تيم" و أنام و كأنني في حلم ,غير "أركان" رقم هاتفه و حصل على إجازة طويلة .***

***نظرت للجانب المشرق و أنا أرى زوجي يعود لي و صديقة عمري تربت كتفي .تناسيت خيانته,تناسيت الأيام التي مرت من دون"تيم" و قررت فقط الاستمتاع بما تبقى لي من عمر.أنا التي أصبحت امرأة تقليدية تؤمن بأن سرطان الثدي مرض قاتل لحواء.***

***أيام لا تاريخ لها...***

***بدأت جلسات الكيماوي...لم يتغير شيء.أنا فقط لم أحب مرآتي كما سبق.لم أكن أملك الشجاعة الكافية لأناظر ملامحي الأنثوية و هي تضيع مني,وجه باهت مبقع بالأصفر .بت أحرك رأسي ببطء خوفا من تساقط ما تبقى من خصلات ذهبية لطالما أحبها "أركان" .***

***"أركان" الذي كان يقبل وجنتاي المصفرتان, و الذي كان يخبئ سأمه من غثياني المستمر و إرهاقي الذي لا نهاية له.***

***كنت أعد رموشي التي لم تعد طرقها تتقاطع و صارت سهلة التعداد. كان ينقص واحد منها كل برهة من الزمن.أصبت بالهزل و لم تعد فساتيني تناسبني و لم يعد بمقدوري الحفاظ على الثغر الضاحك لإسعاد أمي التي لم تقتنع يوما أني بخير.***

***يوم شتوي ساحب...***

***رجعت بعد جلسة كيماوي للمنزل...أمسك بكل ما تبقى لي من قوة بيد "أركان". بينما أنا ضائعة بين عالم اليقظة و الخيال في تمام تأكد"أركان" من غطي في النوم, زاد وجعي و لم يكن بمقدوري حتى التأوه و أنا أستمع للشخص الذي راهنت على انفرادية وجوده :***

***\_"هاجر" حبيبتي لم يتبقى الكثير...عليك تفهم الأمر انه ليس الوقت المناسب لانسحابي من حياتها.سنكون معا عما قريب.***

***بسم ثغري لا إراديا ...لم أرغب بالبكاء فقط شعرت بتزاحم الأفكار داخل رأسي و شعرت بحجم الغباء الذي مكنني من مسامحته .***

***الخطئ الوحيد الذي لا يستحق صاحبه المحاولة الثانية هو الخيانة.***

***هل سبق لك و أن أحسست بالعجز؟...بالضعف؟...باللاشيء؟***

***لقد شعرتها حقا دفعة واحدة. ازدحام لا وصف له شعرت به آن ذاك .***

***نحن زمرة النساء نتحاشى الذكاء في التعامل مع من نحب.نحن نختار طريق الأعذار ..نجد الأعذار و نضعها ثم نصدقها بمنتهى الغباء.***

***وقتها أبصرت طريقين***

***\_طريق للاستسلام. الاستسلام للخيانة ..للغباء...للمرض...ولكل ما هو متعب.***

***\_طريق للمقاومة.مقاومة الكثير من الجرعات.جرعات الكيماوي ...الخيانة...الانكسار.***

***و خلدت في نوم عميق دون أدنا تفكير.***

***السادس عشر...أكتوبر***

***يوم كان لابد من تذكره.***

***دون أدنى تفكير طلبت الطلاق من "أركان" .دون مقدمات ولا أسباب ولا حتى جدال أو عتاب.***

***رسمت مراسم النهاية بنفس الأقلام ,في اجتماع للسرطان التقينا و في تجريب واقعي له افترقنا.انها لعنة الحب ,و فلسفات النهايات.***

***هذا ما كان يجب أن أقوم به من الأول ,كان علي إفلاته من اليوم الأول ..ما كان علي إحكام قبضتي عليه ,خطئي أني تجاهلت توهجها في عينيه منذ بداية المشوار.***

***خطئي كان يقيني بقدرتي على محو الحب الأول .***

***الحب الأول لا يموت.فقد يصدئ لكنه لا يفنى...لا ينتهي.***

***بشكل من الأشكال تخلصت من الفراغ و الروتين القاتل.***

***صرت أمتلك قضية طلاق معلقة ...جلسات كيماوي...صراع ضد المرض,ضد التعب,ضد الكلام المشاع.***

***خساراتي لم تنتهي هنا***

***الحياة أجبرتني على التخلي.***

***تخليت عن حب حياتي لأستعيد كرامتي...و اليوم أجبرتني على التخلي عن ثديي الأيسر علني أستعيد الحياة.***

***فتحت عيناي على محيى أمي الذي كان الوحيد الذي لم يفارقني بعد.تمسك بيدها وفيتي"سعاد"المشبعة بالبساطة.***

***نجحت في الحفاظ على برودي حتى وصولي لغرفتي التي كانت تعلن إشارة المنطلق للإفصاح عن الانكسار الهائل الذي يعتريني.***

***ساعات طوال...***

***لم أفعل شيء غير مناظرة ذلك الفراغ الذي يعبث أيسر صدري .أناظر الخياطة التي قضت على أنوثتي...أمومتي و الكثير الكثير.***

***لم أعد أُعدُ الأيام التي تمر و أنا في غرفتي التي اشتاقت ارتشاف الهواء.كنت أجلس منتصف السرير . أرتدي جوارب قطنية متوسطة لحافا سميكا يعجز عن تدفئة جسدي الذي كان أشبه بقطعة الجليد.جسد لم يعد يرتشف الحياة.***

***جسد كان بلائه قلب يتوسطه يبتليه بصقيعه. انه يجمد خلايا عقلي و يرسخني مكاني .لا أقدر على الحراك .لقد أنهك رأسي صوت رقاص الساعة و علبة الموسيقى على مقربة من مسمعي. موسيقى حزينة تليق بالجو الساحب الشتوي السائد.***

***فراغ...***

***حصلت على فراغ كافي لأفكر بالكثير.لأعيد تفاصيل الحكاية يوميا,لأبحث عن الخطئ.***

***قصصت حكايتي للمرة الألف على مسمع "سعاد" كانت تقول أنني لم أذنب لكنها لم تجد إجابة لسؤالي***

***\_لما تخلى عني الجميع؟لما تخلت عني الحياة؟***

***كنت أناظر المرآة بالكثير من الذكريات و الخيبات .أحكي لها كل يوم التفاصيل التي قتلتني. لقد كنت مدمنة تفاصيل لذلك مت بسرعة.***

***تفاصيل تجعلنا نعيش في دوامة***

***دوامة يقضة ممزوجة بالأحلام.نصارع البقاء بكل ما تبقى لنا من قوة.فقط نصارع في دوامة مغلقة و حلقة مفرغة.بين جدران رمادية تعيدنا للماضي السحيق حيث كنا يوما و يا ليتنا ما كنا.نعود أدراجنا لنتأفف...لنتأسف لنا على قلة دهائنا في اختيار ركائز حياتنا الهشة التي سقطت بنا عند أول اتكاء في أول منعرج.تعود بنا عتمة ستائرنا إلى أخطائنا في حق غيرنا...في رفضنا لمن يحبنا و اختيارنا للأسوء. نعود لمجموع الصور المعلقة على الحائط...للطفولة المشبعة بالنقص و البهت . تعود بنا وحدتنا لأخطائنا في اختيار الواطئين لأراضينا اليسارية نحن من نختار الأسوء .لنجدنا في آخر المسير نتمتم بكلمات العفو راجين السماح... ممن ؟***

 ***من ذواتنا المحطمة التي تجرعت أردئ الذكريات و التي ما عادت تقدر على فسخ ماضينا.***

 ***الاعتذار لنا منا نحن و من أخطائنا و من مجموع الآلام التي قدمناها لن, لنفتح أعيننا في نهاية المشوار على مكنونات أشبه بالعدم. تمعنت هالاتي السوداء جيدا و نهضت لأستحم تمام الواحدة بعد منصف الليل.***

***حملت ساجدي و شهقت ساجدة.و كأن جسدي يشكرني على إيجاد الطريق . تماما كشكر طفل أعدته لأمه بعد ضياع طويل.***

***صليت طويلا...بكيت كثيرا .أزلت الستائر و لم أنم يومها .رحت أناظر طلوع الفجر الذي اعتبرته فجرا جديدا لي .***

***اقتل التفاصيل قبل أن تقتلك.***

***هذا كان شعاري الجديد.انتزعت الخاتم الذي لم انزعه لسبع سنوات طوال.أزلت ذلك العقد الذي ربط برقبتي لأربع سنوات طوال ,تركت العنان لهستيريا أصابتني يومها و مزقت الصور الحائطية.قصصت ما تبقى من شعري دون خوف.من يومها قررت الرجوع للحياة محطمة لعلبة الموسيقى .قررت العودة أدراجي لشبابي و من يومها لم أبكي رجلا.***

***تخلصت في بادئ الأمر من ستائري العاتمة و قررت مساعدة ضوء الشمس على التسلل لغرفتي و لجدران صدري المعتم .***

***ارتديت أجمل فساتيني و لم أشعر بالحرج للنقص الذي ألم بي.***

***وضعت الماسكارا للرموش المعدودة على رؤوس الأصابع و التي كنت أفخر بها حقا,نزعت كعبي العالي و حقيبتي الكلاسيكية ,تحررت من التفاصيل و عدت للحياة من على مقربة الموت.***

***قررت أن تكون لي طبيبة نفسية, و رحت أمارس حياتي العادية دون قيود.***

***أخذت الأيام تمر و أنا أناظر نمو شعري و طول رموشي.صرت أوفق بين نسج الأقمصة الصوفية مع أمي ,و شرب القهوى مع "سعاد" و الوقت اللازم لمداعبة قطتي التي كانت الوحيدة المقاسمة لجميع ليالي القاتمة,صرت أمارس الرياضة و أؤمن بالحياة,اكتسيت حلة جديدة***

 ***غيرت واجهتي ...غيرت وجهتي و زدت من أمتعتي .شجعتني الطبيبة النفسية على العودة لحلمي و مزاولة الدراسة .كانت تقول أني بقوة جبارة :***

***\_ أساسا أنت فعلت المستحيل لا شيء يصعب عليك الآن ...حتى أمك لم تكتشف حزنك الدفين أنت بقوة جبارة حقا .***

***قررت أخيرا مزاولة الدراسة و محاولة تذكر بعض من الأشياء التي مر عليها ثلاث سنوات.***

***اقترضت مبلغا كان هو بداية افتتاحي لعيادتي الخاصة.لم تصعب علي الدراسة و لا الوضع المادي التحرر هو الصعب .و أنا قمت بالأصعب .***

***تحررت من القيود التي وضعتها لنفسي***

***كسرت قيود المرأة التقليدية.الزوجة العبيد التي يراها زوجها جسدا...غسالة,آلة طهو.***

***أصبحت أكثر بكثير***

***عدت لطبيعة المرأة المعاصرة .ليست أي امرأة معاصرة.***

***امرأة تعتصر الحياة من العوائق.امرأة لا تؤمن بالسند,تعلم تمام اليقين أن من خلفها لا يحميها.فقط يحسدها و لا يقدر على لحاقها.***

***تأكدت أخيرا أن لا أحد يحمي الآخر.الجميع يفترس ليبقى .***

***الخامس من جويلية***

***حفل افتتاح عيادتي .***

***مر زمن طويل مذ أن رأيت دموع الفرح في عيناي أمي.***

***اليوم أنا أناظر نفس المرآة***

***أرى بها تلك الفتاة الضعيفة التي ما تقدر على كبت البكاء, ذات الوجنتين الصفراوتين و الوجه الشاحب الذي تتوسطه هالات سوداء قاتمة...***

***فخورة بالمرأة التي أعددتها اليوم بالزي الذي طالما حلم أبي برؤيتي به.***

***اليوم أنا أقوى ...أمنح الكل الأمل بالشفاء و كأني مثال حي لهن***

***أقوى من أن أتخلى عن أحلامي من أجل رجل...أقوى من أبكي رجلا.***

***اليوم قررت مزاولة مهنة تبعث الحياة.تزرع الأمل في أرواح على مقربة الاستسلام.***

***فخورة بالصورة التي أرى بها شاكلتي الجديدة.***

***العشرون من سبتمبر...***

***في آخر اليوم كالعادة,حملت مجموع الرسائل التي وصلتني و اتجهت للبيت.***

***جلست على الأريكة مقابل أمي,أتمعن خطوط و تراسيم وجهها تارة,و أفتح الرسائل تارة أخرى...***

***فواتير كهرباء...استفسارات حول أدوية...***

***ما قطع روتيني "بطاقة دعوة لحفل زفاف"***

***فتحتها بلهفة متسائلة من المرسل,أنا التي لم أعد أمتلك الكثير من الأصدقاء.***

***\_عزيزتي "روجان"كونك شخص مميز بالنسبة لي.كتبت الرسالة بخط يدي.***

***أتمنى أن تقاسميني فرحتي هذه و أن لا تردي الدعوة ,كوني قاسمتك فرحك يوما***

***أتمنى حضورك حقا.***

***التوقيع "هاجر"***

***رغم محاولتي إقناع نفسي أن الأمر لا يهمني, إلا أن الاكتئاب زارني مرة أخرى بعد زمن طويل.***

***أصوات داخلية تتصاعد...حوار داخلي ما بين قبول للدعوة و رفضها.***

***كان الصراع بين قلبي و عقلي دمويا حقا.كان عقلي يفكك ما ينسجه قلبي ليلا.***

***تعددت الأسباب و الميت أنا في كل مرة.***

***كنت متعبة جدا***

***متعبة من الخسارات...من ضياع الأحلام...من إفلات الأصحاب ...من نفاذ الطاقة.***

***عجزت فجأة عن الانسحاب و عن الإكمال.فقط في هذا الوقت المتأخر من الليل أدرك أن قلبي صنع لينبض له فقط,رغم كل الألم الذي منحني إياه.***

***بعيدا عن النظرة المثالية التي رآني بها الجميع***

***أود إخباركم عن الوحدة التي شعرت بها. فراغ كبير يعبث ببقاي المزيفة,تنهرها الذكريات و يمزق جسمي الهزيل مجموع الخيبات المتراكمة.أنا فقط أفقد كلي...أنا أفقدني و أفتقدني حقا.فقط أصبحتُ حملا ثقيلا علي.***

***لكنني اخترت...***

***اخترت الطريق الذي لا تهواه ساقي لأول مرة.و قررت تلبية الدعوة.***

***اتجهت صباحا لأختار حلة لائقة بهذه المناسبة القيمة.لأول مرة لم أراعي الألوان التي يفضلها.***

***الأحمر...كان اكره الألوان على قلبه.اخترته دون تردد..***

***قصصت شعري الطويل الذي ادعى حبه يوما.كسرت علب العطور و كانت أهم خطوة بحياتي للعطور لمسة خاصة تجعل ذاكرتنا أكثر نشاطا.***

***تخلص من العطور...سيسهل عليك النسيان***

 ***كنت فضة بعض الشيء و لم اختر أي هدية.***

***فقط قررت أن ارجع لها عقدها الذي أهدتني إياه مسبقا قبل أن نتبادل الأدوار.***

***تجاوزت كل ذلك بمفردي,لم تربت أي يد على كتفي.لم تمسح أي أنامل ادمعي و لم تشدد أي أذرع أزري.أنا لوحدي تجاوزت هذا الخراب العارم بهذا الثغر الباسم و هذه الإطلالة المشرقة.***

***تعمدت أن أكون آخر من يصل للحفلة.لم أكن أسعى للفت الأنظار, غايتي كانت حرق أعصابها لا غير.***

***دخلت القاعة تحت أنعام نفس المقطوعة التي تغنوا بها قبل ست سنوات من الآن.***

***كانت جميع العيون تحدق بي. لم يهتز كبريائي ولا حتى ثقتي بنفسي.أبصرت في الجهة المقابلة "تيم" رفقة زوجها.***

***تنتهي الصداقة حين يتوقف صديقك عن كره من تكرههم.***

***فقط حينها توقن أن صداقتكما انتهت حقا.أن تحصلي على زوج او حبيب أمر سهل جدا.الصعب هو إيجاد الأصدقاء.***

***الحياة تمنحك صديقا واحدا لا غير أما الباقي فهم يسدون الفراغات فحسب.***

***المؤلم أن تظن أنهم ما يزالون يربتون على الفراغ الذي تركته بهم.لتكتشف آخر الطريق أنك الوحيد العالق في تلك التراهات المسمات بالذكريات. هم لم و لن يشعروا بغيابك أبدا , لأنهم لم يتخلوا عنك حتى وجدوا البديل ... هم الآن مشغولون في الغوص بتفاصيل الأشخاص الجدد, في حين أنك تحرق عمرك في إعادة التفاصيل و البحث عن الخطئ .تسترجع الأحداث و تغرق في التحليل دون جدوى.لأنه فعلا انتهى.***

***جلست مكاني بأبهى حلة,أرغم وجهي على التشنج ليحافظ على هذا الثبات المرصع بالكبرياء.***

***أخيرا أنا أسمع اسمي,"تيم" تناديني.لم أتفاجئ لذلك.المفاجئ في الأمر رؤيتي لـ"سجيد"معها على نفس الطاولة.ارتجف داخلي و اعترتني رغبة في البكاء...في احتضانه و شتمه ...لومه على كل الأعوام اللامتناهية التي مرت من دونه...شعرت برغبة في ضربه و الانكسار ما بين يديه كالعادة.***

***لكني تجاهلت ذلك و تقدمت بخطى ثابتة و ضحكة جانبية مصطنعة***

***مددت يدي بسلاسة و صافحته ملقية عبارات السلام لا غير.و كأنني لا اعرفه و كأنني لم ابصر معه عمري يوما.صعب علي الأمر فعلا لكن لابأس بقليل من الكبرياء.***

***جلست ررفقتهم أتجرع الماضي رشفة تلو الأخرى حديثهم عن الماضي كان يفتت أضلعي أنصت و أقهقه بأعلى صوت .اضحك تفاهات الماضي اللئيم الذي لن أرغب بالرجوع إليه .لم ارغب بالرجوع لرفقة عمري.الرفقة التي قاسمتني أياما كانت أجمل ما املك.اليوم بت أرفض تواجدهم بأي شكل من الأشكال أرفض تذكر تفاصيلهم و إبصار أعينهم .شيء داخلي رفض التوغل بتفاصيلهم مرة أخرى.***

***اليوم بنرجسيتي أؤمن تمام الإيمان أني لست بحاجتهم.لم أمتلك الرغبة حتى باللوم.كنت أقوى منهم حين تجاوزتهم دون عتاب ...دون تشويه,دون سؤال عن السبب .نعم إنها قوة منك يا صديقي أن تغادرهم دون وداع ..ستشعر انك أقوى منهم كونك تجاوزتهم دون ترك اثر سيء بهم.دون أن تدير ظهرك أو تشتكي.***

***الماضي خلق ليذكر فقط.***

***عند اللبيب الماضي لا يمكن إحيائه,انه يطوى لا غير.***

***قاطع هدوئي تصفيق الحضور...دخل حبي الأول رفقة محبوبته الأولى.***

***لوهلة اختلطت مشاعري حقا.***

***كان بي كم هائل من الأشخاص يتحدثون دفعة واحدة,منهم من يقول :***

***\_تبا يا هذه ,منذ متى كنت بهذه الأنانية هو مع التي يحب.اسعدي لسعادته كعادتك.***

***صوت آخر يلوم:***

***\_أخبرتك من البداية أنه ليس لنا.ما كان يجب تجاهلك لها بعينيه من البداية***

***صوت آخر:***

***\_تبا لك,لو كنت مع غيرها ما كان يهمني,أنت الوحيد الذي سيلدغ مرتين من جحر واحد.***

***تقدمت بخطى متثاقلة أحسها لوحدي.أبصرت البساط المفروش بلا نهاية.أسير و كم هائل من الذكريات يصفعني.حاملة بيدي هدية زواجي لأعيدها للعنق المصمم لها.***

***بصوت ثابت و جريء:***

***\_أتمنى لكما السعادة الدائمة.***

***بصوت ثنائي موحد:***

***\_شكرا آنسة "روجان".***

***عدت أدراجي لطاولتي أتمعن السعادة في وجه"أركان".كنت أمعن النظر علها تكون منطلق نسياني.***

***كان علي إنهاء هذا الحطام بأي شكل من الأشكال و ترميم ما انكسر وتجاوز العقبات.هذا ما اذكر أني قلته و أنا خارجة من القاعة ,لأفتح عيناي في غرفة المستشفى ,تمسك بيدي أمي التي لم تتركها يوما.***

***رجعت أدراجي لجدران غرفتي التي ملت تقاسيم وجهي العابسة,رجعت لأفتح عيناي على يدي تعانق أياد لطالما عاهدت نفسي على عدم الحاجة لها.لم أجد أي سبيل لتقبل وجود "سجيد"هنا,لم أكن أود عودته أبدا ,العودة الباهتة المتأخرة تماما بعد أن آمنت بأن مقولة :الوصول متأخرا خير من عدم الوصول أنها خاطئة , خاطئة تماما.***

***لا خير من الوصول متأخرا أبدا لأن معاني الأشياء تضيع مع الوقت.***

***لذلك آمنت دائما بوجوب الوصول في الوقت المناسب أو عدم الوصول من الأساس.***

***السادسة صباحا...***

***نهضت من فراشي مسرعة تحت أصوات ضحك أمي اللامتناهية التي أظنها تجالس "سعاد" كالعادة.ارتديت فستاني و وضعت حمرتي و ما يكمل زينتي علني أستطيع إخفاء حطام البارحة.***

***حملت حقيبتي و اتجهت لاحتسي قهوتي و التمتع بتفاصيل جنتي.***

***تفاجأت بمجالستها لـ:"سجيد "كان علي أن أحزر ذلك لأن الوقت كان مبكرا على قدوم "سعاد".***

***صور و ألبومات هنا و هناك...خربشات و رسائل أطفال...علب عطر فارغة و ورود مجففة.***

***ما أزال أذكر كلا منها على حدة.***

***وددت لومه... وودت طرده و إخباره أن الوقت تأخر... وددت احتوائه و إكمال المسير معه من نقطة الوقوف.فقط كنت تائهة في دوامة من المشاعر اللامتناهية,قاطعها صوت أمي المتسائل:***

***\_روجانتي قهوة؟***

***"سجيد" :***

***\_ ههه و منذ متى" روجان" كانت لتحتمل رائحتها حتى تحتسيها؟***

***حملت كوبي و رحت أسكبها دون النظر إليه قائلة:***

***\_ لقد فاتك الكثير.***

***\_لابأس سأستدرك الأمر***

***\_لاداعي لذلك,لم يعد هناك داع لذلك.***

***سرت رفقة كوبي,الكوب الذي واجه معي أحلك لحظات حياتي.الكوب الذي كرهت رائحته يوما.***

***دخلت عيادتي و أنا أعد الكثير من عبارات القوة و الأمل لأزرعها بروح "عائشة"***

***"عائشة"***

***أرملة طالما ظنت أنها ستلاقي حدفها و طالما سألت زوجها أكان ليحب زوجته التي سيتزوجها بعدها بقدر ما أحبها, تقول أنها كانت تحب عبارات السب من فمه و بقبضته المحكمة على فمها ليجبرها على عدم التفوه بذلك,قالت أنه كان يقول أنها ستكون زوجته الأولى و الأخيرة و يدعو دائما أن يكون لقائنا بالجنة.شاءت الأقدار و مات هو الأول في حادث سير لتمنع من رؤيته حتى بعد موته.لم تكن لها رغبة بالحياة من دونه كما أنها لم تملك الرغبة بالموت أيضا من أجل صغيرتها التي تيتمت بعمر الشهر الواحد و التي لم تشبع من حليب أمها و لا من حنان أبيها,كانت لتحضى بحب عظيم تماما كحب والديها لبعضهما."عائشة" كانت تأتي وحيدة للعيادة بالرغم من حالتها المزرية.أخبرتني يوما أنها تزوجت من تحب قوة و قالت أن العمر غير كاف لتحب مرتين, فالنسيان لوحده يحتاج عمرا و قالت أنها لم تندم على ذلك و لا يهمها ما إن كانت وحيدة الآن.***

***كنت أعود للمنزل كل مرة علاج معها محطمة و مفعمة بالأمل و مشبعة بالألم .أنا بصفتي طبيبة أعي تمام اليقين أنها وصلت لأخر درجات السرطان و ليس هناك أمل لعلاجها. كنت أصاب بانهيار عصبي ما مصير "رحيل" من بعدهما و كأن اسمها كان مؤشرا كما تقول "عائشة" . تقول أنها سألت زوجها يوم عن اسم طفلتهما لكنها لم تعلم أن مراسيم الرحيل تنسج غيبا حقا.***

***دخلت "عائشة" بابتسامة غير معهودة تحمل صغيرتها بيدها***

***\_أهلا حبيبتي تفضلي***

***\_شكرا حبيبتي "روجان".***

***حملت" رحيل" بيدي لم أشعر بشيء كهذا من قبل, كان لحافها يصعد و ينزل مع كل نفس تأخذه بخصلات ذهبية و رائحة أشبه بالجنة , إنها جرعة حياة حقا .***

***\_ما سر هذه الابتسامة حبيبتي "عائشة" أراك اليوم مليئة بالبهجة***

***\_لقد اقترب لقائي بـ"أنور" –أنور اسم زوجها- يقال أن الأحباء لا يطيلون العيش بدون أحبائهم***

***\_لا تقولي هذا "رحيل" ما تزال بحاجتك***

***\_آنسة "روجان" لطالما حسبتك أختي و جزءا مني ,و لم أتعامل معك برسمية يوما. دعينا نكون صريحتين لم يتبقى لي الوقت الكثير أودك أن تعديني...***

***\_بماذا؟***

***\_"رحيل" ستكون بأمانتك لم أجد شخصا لأمنحه كلي غيرك, لا أظن أن خالها سيحبها يوما.ان وافقي سأعد أوراق الكفالة و ان لم تقبلي لا حرج في ذلك كل ما في الأمر أريدك أن تطمئني عنها بين الوقت و الآخر ,لطالما تمنيتي أن تكون لك فتاة . لكن لا أود إجبارك على هذه المسؤولية.***

***\_لكن..***

***\_لا تجيبي الآن فكري و أخبريني و لا تحرجي من الرفض من فضلك.***

***مشيت أمسيتها,مشيت طويلا,هل سأكون قدر المسؤولية؟هل تستطيع أمي الاعتناء بها ساعة غيابي؟ما مصيرها إن لم اقبل العرض؟شعرت ساعتها بالضعف.***

 ***فقط لأني كنت قوية و صلبة لم ألوى...فقط كسرت.***

***سرت أميالا لا أعلم من أين بدأت و لا إلى أين تنتهي .سرت طريقا لا أحبه و لم أسره بمفردي من قبل.يحدث أن تكره طريقا اغتيل فيه قلبك يوما,كما يحدث أن تكره جميع الأصوات المشابهة لتلك النبرة التي أحدثت الفارق في حياتك,تكره الأغاني و علب الفشار و حتى الأشخاص الحاملين لنفس الاسم...اسم مدمرك الأول.***

***جلست على حافة المقعد الذي طالما كنت آوي إليه.جلست على جانبه و كأني مرغمة .جلست أحاول لملمة ما تبقى مني و ما تبقى لي من قوة. فقط حينها تذكرت مقولة لأستاذ لي بالثانوي..قال يومها بانفعال أن الحياة لا ترحم الضعفاء .كان من الصعب أن أنساه فقد ترك فينا بصمة يصعب إزالتها قال القليل لكنه حفر بقلوبنا الكثير... فقد فتح أبصارنا و أرانا حقيقة المصير,أستاذ العلوم يومها أخبرنا أن الالكترونات تتوزع ضمن مدارات حسب الشحن. هذا لم يلفت انتباه الكثيرين لكن المثير في الأمر هو ما قاله بعدها و الذي ما يزال راسخا برأسي لليوم, و الذي آمنت به حقا بعد التجربة ,أذكر انزعاجه يومها من علاماتنا المتدنية الشيء الذي لا تجده عند الجميع , انه "الضمير" لذلك صعب علي نسيانه.***

 ***بينما الجميع من قريناتي كن منشغلات يومها بتأمل مدى عمق غمازته فاتهن الكثير, فبابتسامته الجانبية الساخرة قال أنه كلما زادت طاقة الإلكترون صعد إلى مجال طاقوي أعلا, و الكون تركيب الكتروني . فكل ما هو على الأرض أصله من الالكترونات, و بالتالي أودعت فينا صفة الطبقية بالفطرة و بالتالي الكون فطر عليها. و المطلوب هو أن تكد حتى تكون في مجال طاقوي أعلى لكي لا تدعسك عجلة الزمن. قال انه لا يوجد مكان لنا نحن الضعفاء و لا احد يحبك في الحياة سوى الأم الكائن الوحيد الذي لا يتعب من العطاء حتى ينفذ.***

 ***اخبرنا بوجوب إسعاد هذا الكائن قبل أن ينتهي عطائه. قبضه المحكمة و صوته الصاخب آن ذاك لم يكن إلا صوت ضمير حي.***

 ***و كأن به جرحا لا يودنا تجريبه و كأن به خبرة تتحدث, و كأنه أراد بنا الوصول بأقل الأضرار لكي لا تفاجئ بالأقدار. من يومها أعددت ورقة حائطية علقتها قبالة سريري ,كانت أول ما يواجه ناظري حين أستيقظ "قانون الذرات".***

 ***ظلت ترافقني في كل انكساراتي وكأنها عكاز حياتي.***

***-فشار؟***

***\_ لا شكرا كنت على وشك الرحيل***

***قالها "سجيد" و هو يحمل علبتا فشار تماما كالسابق...لكن لا شيء كالسابق.***

***\_حسنا سنذهب سويا إذن.***

***\_لا شكرا... لدي الكثير لأقوم به.***

 ***سرت و بأذني سماعاتي التي كانت تخفف حجم ثقل الخارج,كنت أضع مجموعا من الأغنيات الصاخبة التي كانت تمر مرور الكرام على مسمعي و أنا شاردة تمام الشرود, لتقطع شرودي مقطوعة واحدة كل مرة لوائل كفوري "آنت مش أول حدا ابل ما يوصل فل"***

***و كأن داخلي يصرخ راجيا مني الرحيل و ترك هذا الخراب دون تلويح للوداع.***

***\_لم أعهدك بهذه الأنانية سلفا.***

***أجبت بصوت مبحوح أقرب للبكاء أو للصراخ أو لا اعلم حقيقته***

***\_ستتأقلم***

***\_أعلم أني أخطأت بحقك ,ما كان علي تركك بأيام مرضك, و لم يكن بمقدوري التواجد أيضا بوجوده.***

***أكملت مسيري و زدت لصوت الموسيقى دون أدنى اهتمام رغم أن الصوت العالي لم يمنع حديثه من العبث بداخلي حتى أوقفني بقوله:***

***-بعد كل هذا أظن انك ستسامحينني الآن, فقط أصبحت تدركين ما معنى أن يرى الإنسان الشخص الذي أحبه لسنوات طوال سعيدا مع شخص آخر. أنت تستطيعين فهمي بعد أن عرفت ما معنى أن تبني أحلاما لمدة طويلة على آمال كاذبة أن تري شخصك المفضل يسلب على مرأى من عينك. ستتكبل يداك...كنت أراه ضمن بحر عيناك الواسع, لم أستطع الإكمال لوحدي بدونك. أنا أيضا عايشت مرارة ما عشتيه سالفا . كنت أراه يستوطنك و يرد بهجتك,هو أخبرني أنه لم يعد مرحب بوجودي و اني أعرقل طريقه نحوك.سألتك يوما, قلت أنه أصبح جزئي الأيسر. لم أك قادرا على كوني سبب بتر جزئك.لذلك رحلت بعد أن أشبعت ناظري خلسة بملمحك بالفستان الأبيض الذي أعددت تفاصيله منذ طفولتي بمخيلة صبيانية .***

***تجمدت مكاني بعد حديثه بكثير من الألم و كثير من الدهشة, تذكرت المرات التي قالت فيها "تيم" أنه يحبني و أنكرت. بقليل من الدموع و الكثير من التساؤلات لم أكن اعرف ما إن كان علي الفرح بعودة سند قديم أو البكاء على صديق قديم.***

***الكل يعلم ما معنى أن يختلط الحب بالصداقة***

***الحب دائما ما يكتب مراسم نهاية الصداقة بطريقين لا ثالث لهما***

***إما أن يسير كل بحال سبيله و تنتهي الصداقة المحاكة بالنقصان ,أو تسير للنهاية التي تبدأ بحب أبدي في حال كان الشعور متبادلا.***

***كثيرا ما تنتهي الطرق في مجتمعي بمسير مختلف كل في حال سبيله نحو نهاية مجهولة.***

***-ألن تقولي شيئا؟***

***-لا أريد قول شيء***

***قلتها و أنا أسير نحوه دون وعي مني ألكمه تارة, و أتمتم بكلمات غير مفهومة تارة أخرى. لمته على كل ما سبق شرحت له كم التعب الذي حمله هذا الكتف. لم أستطع تجاوزه .ربما يستطيع المرء تجاوز حبيب لكنه لا يقدر على تجاوز صديق أبدا. لمدة طويلة لم أشعر بالكم الهائل من الراحة و أنا أبكي بكتف أحدهم دون أن أخاف إزعاجه .***

***بكيت الأيام بكيت الذكريات و قلة الحظ...لعنت الوحدة و ساعات الغياب.***

***لم يتكلم***

***كان يعلم كيف يهدأ المرء المتعب من نفسه, تركني أصرخ و العن الوجود لم يحاول تهدئتي ,لم تؤرقه نظرات المارين المتسائلة ,أفرغت تعبا طويلا في كتف شهد نشأتي وسط رائحة الطفولة و غمرات البساطة.***

***هدأت أعصابي فجأة و كأن التعب اللامتناهي انتهى أخيرا. وكأنني منحته لغيري و أزلته من على كتفي.الشيء الوحيد الذي يحق للمرء الفخر به هو امتلاكه لشخص يقسم معه مرارة الحياة.***

***-فشار؟***

***-حسنا إن كان حلوا سأقبله***

***- نعم انه كالسابق حلو.***

***بتنهيدة كبيرة***

***-هل أعد هذا صلحا حضرة الدكتورة؟***

***- ليس قبل كيس آخر من الفشار ,هيا لابد و أن أمي تنتظرني***

***ركبت السيارة و أخذت أثرثر تماما كسنين ماضية و كأن الفراغ لم يعبث بنا يوما,حدثته طول الطريق عن "عائشة" و برعمها المزهر "رحيل"***

***\_ أنا سأدعمك في كل قرار تتخذينه و أظن أن "رحيل" ستكون أمانة في عنقنا***

***شعرت بالأمان بعد سنين من الضياع مر وقت طويل لم يخاطبني فيه شخص بصيغة الجمع.أمر رائع أن تجد من يساند كل خياراتك بالحياة.***

***أسعدني ثغر أمي الباسم و فرحها بعودتنا,جلست أراقب تفاصيلهما و أحاديثهما كالسابق.***

***تناول" سجيد" العشاء معنا, سمك و أرز, أكلته المفضلة التي لم تنسها أمي يوما,و اتفقنا على اللقاء صباحا .أسرعت لخزانتي أبحث عن ثوب لائق للقاء. بعد وقت طويل أظنني نسيت ما معنى أن تعد فتاة نفسها للخروج في موعد.***

***رحت أعيد طول الليل ما جرى, الكثير من التساؤلات تطرح النوم بعيدا:***

***أمازال يحبني أم كان ذلك سابقا فقط؟كيف أتعامل معه من الآن فصاعدا؟ماذا عن "رحيل" هل أنا قدر المسؤولية؟***

***أسئلة لم يكفي ليل ليلة واحدة للإجابة عليها,غططت في نوم عميق دون أثقال لأستيقظ على صوت الهاتف***

***السادسة صباحا...اتصال من العيادة***

***شلت يدي و كأني أيقنت الخبر قبل حمل سماعة الهاتف***

***\_ دكتورة " رجان" فقدنا "عائشة".***

***لا أعلم ما إن كان علي تذكر التاريخ أم لا ...فقط انه اليوم الذي أصبحت فيه "رحيل" يتيمة الأبوين***

***و كأن اسمها كان فأل شر عليها.***

***انهارت أعصابي و لم أستطع تمالك نفسي,حتى أمي حزنت على فراق "عائشة" التي لم ترها يوما,فقط هي عشقتها من حديثي عنها و عن صبرها ... حتى قطتي السوداء عهدت أن أتلو عليها قصص كفاحها اليومية... حتى صبارتي لم تشعر بالغيرة من يومها, فقد فقدت منافستها في الصبر." عائشة" كانت صديقة الكفاح الذي لم تسلم بالخروج منه.و اليوم فقدتها و كأن الحياة تعاقبني على ماذا ؟***

***لا أدري.***

***أظنها تحاسبنا على المجيء رغما عنها.أظنها تحاسبنا على الكفاح و الكبرياء و تصفعنا كل مرة بقوة أشد علها تضعفنا.هل ينتهي الأمر بالاستسلام.كيف الطريق للخلاص ما عاد بالوسع خسارة المزيد.***

***انتهت مراسم الجنازة***

***لم يحظر أحد من أقارب "عائشة" كانت محقة بقولها أن "أنور" كان كلها و أخذ كلها معه.***

***كانت لتكون قصة عشق رائعة ,الزوجة التي أبت العيش بدون حبيبها ,و الزوج الذي علم بدنو أجل زوجته فسبقها.كانت قصتهما لتكون رائعة ضد العادات و التقاليد و الأقاويل...لولا "رحيل" التي منحت كفالتها لخالها الذي بدوره رفض النظر لجثة أخته الصغرى. جدتها مصابة بالزهايمر , لازمها هذا المرض الوحيد الذي يستطيع القضاء على التفاصيل , بعد زواج"عائشة" و "أنور" ذاك الجسد الهزيل لم يقدر على التحمل,من المذنب ؟***

***أظنها العادات و التقاليد هي المذنبة بكل هذا.***

 ***كانت تناديني باسم "عائشة" في المرات المعدودة التي زرناها بها أنا و "سجيد." تطلب مني إسكات ابنة الجيران "رحيل" التي لم تعلم أنها آخر ما بقي لها لتشتمه من ابنتها.***

***اقتنعت بالاعتناء بـ"رحيل" البرعم الذي فقد حمرت خديه في آخر زيارة لنا هناك.لم يتحمل قلبي رؤيتها بذلك الشكل, حتى خالها لم يمانع بتسوية أوراق الكفالة.و كأنه كان يرى فيها انكسار هيبته و ضعف حكمه.لم يمانع أبدا بالخلاص منها.***

***حملت "رحيل" بين ذراعاي,كانت تسكت عند حملي لها مباشرة, و كأنها تساعدني في تنفيذ وصية أمها. نظرت بعيناها متسائلة:أتراها قارب النجاة الذي بعثه الله لي؟ أتراها بر الأمان من هذا الخراب؟***

***الأول من سبتمبر...الأيام السبتمبرية دائما الأجمل***

***أصبحت أما لكائن أشبه بالخيال, يقطن معي بغرفتي,الغرفة التي غيرت أنا و "سجيد" لون طلائها و جملناها بسرير بحجم الكف, و بكثير من الدمى التي استغرقنا يوما كاملا لنقلها.***

***أخيرا عادت الحركة للبيت ...بكاء...علب حليب و حفاظات بكل مكان.***

***عادت بهجتنا بقطعة منك يا "عائشة" لتنعمي بجنات الخلود.لاقانا الله و إياك في دار اللافناء.***

***أنا "روجان"***

 ***الطبيبة المتشائمة التي ظنت أن أيام حياتها خلصت ,ليطيل الله أياما من عمرها لتمنح الحياة لشخص آخر . أصبحت أعدد ساعات العودة للبيت الذي يحمل كما لا متناهي من البهجة أعود لأجد صبية مسنة تحيك أقمشة لصبية رضيعة تحت أنغام فيروزية و رائحة القهوة الندية مع قطتي المبقعة بالأبيض المقاسمة لأيامي بحلوها و مرها.***

***"سجيد" فتح عيادته على مقربة من منزلنا عله يكون قريبا من "رحيل" التي أحبها بحجم حب"أنور"لها .***

***اليوم فقط شعرت بالقوة جميع من بالحي يتحدث عن انفصال "أركان" عن محبوبته.***

 ***لم يهمني الأمر البتة, تجاوزته و ما عاد صوته يؤثر بي و لا ملمحه يضعفني. ما عاد عطره يشل حواسي و لا حتى موسيقاه المفضلة تشتتني. نسيته و نسيت كيف يكون الحب و كيف يكون النصف الثاني.***

 ***"رحيل" صارت نصفي و متممتي, أصبحت أعيش بها و لأجلها لا غير. نسيته بكل ما للنسيان من معنى. لكني عجزت...***

***عجزت عن البدأ من جديد, و كأنه كان نقطة النهاية بالنسبة لي .صارت الأمومة مهربي و لم أتمكن من تقاسم مراسم عالمي الأسود المنقط بالقليل من البياض مع احد, حتى مع" سجيد" الذي رفضته مرارا و تكرارا. و كأني أعلم أني باحتلالي لقطعة أيسرية لأحدهم سأحدث خرابا عارما و من ثم ارحل .خير ما أتقنته هو الهرب من الحب ...من البدايات***

***أصبحت أتحاشى البدايات تقليلا للنهايات .كنت أود أن أدعو الله أن يرزقك بجرح لا يبرأ***

***لكني لم أفعل فالله يفعل... انه يصفي الحسابات.هو لم يترك بي جرحا يبرأه الزمان لقد زرع بي شكا يأبى الزوال فقط نحن كنا نحتاج لاعتذار أكثر من أي شيء آخر. اعتذار وحيد كفيل بان تبدأ حياكة مستقبلك دون أن تدوس على لحاف الماضي .أن تخون امرأة يعني انك حكمت عليها بالإعدام. ستجعلها تقلب الصفحات و تدقق الأسطر, تستنزف قواها في البحث عن الخطئ.***

 ***سيضيع نصف عمرها في تعداد الذكريات و السير في الأروقة لتعايش نفس الإحساس.***

 ***باحثة و متسائلة عن النقص الذي أكملته بأخرى.***

 ***أنا اليوم امرأة تؤمن بالأمومة... بحب الأم و الأصدقاء.***

***كان ذلك يؤرقني تكرار" سجيد" للفظ أنا لست مثله.***

***كان طلبه لي بحبه انتحار.***

***لم يعلم ما معنى الوقوع في حب شخص شهد الخيانة من قبل ,سيذيقك مرارة خذلانه , ستتعب من مراقبته سيخنقك بأسئلته و وساوسه. كان حبه لي كالسم.***

***كان يسمم نفسه بيده, كان يعاقب نفسه بشخص مثلي. أنا التي أخاف تركه بأول الطريق على مشرفة الحياة أظنه يستحق الأفضل.***

***ابتسامة القدر...***

***بعد ادخار طويل,أخيرا فتحنا جمعيتنا الخيرية لمساعدة مرضى السرطان.***

***الجمعية التي ترد البهجة للمرضى و التي أسميناها"وداعا للرحيل المبكر"***

***نحن اللذان آمانا أن الرحيل ليس بالضرورة رحيل السعادة و ما شابه ذلك.نحن آمانا بـ"رحيل" التي رحل بقدومها مجموع أيامنا الساحبة.***

***رجعنا للبيت بعد افتتاح حظره نخبة من الأطباء الذين ساهموا في منح رشفة تفاءل للمرضى.ليزداد فرحنا بصوت خفيف للملعقة في فم "رحيل" انه سنها الأول.ليت "عائشة" هنا لتراه.***

***بعد ثلاث سنوات:***

***أنا "روجان" سعيدة اليوم بحياتي حقا***

***رحيل تتكلم أحسن مني على ما أظن ,كيف لا و هي مدللة أبيها "سجيد" الذي لم يبخل عليها بالعطاء يوما ."سجيد" الرجل العظيم الذي ما راني يوما ناقصة بسبب استئصالي لأيسر لصدري.و الذي على الرغم من نقصه لم يبخل على "رحيل" بالحنان و التي تناديني هي الأخرى اليوم أمي. اللفظ الذي يغمرني يوميا بالفرحة و كأنه أول مرة يطرق مسمعي.***

***أمي لم ترغب بمغادرة منزل والدي الذي تضع يدها على أثاثه و تمنعنا من تحريكه خوفا من أن تضيع بصماته من عليها.انتقلنا للعيش معها بعد عرس متواضع لشاب نجح في اخذ محبوبة قلبه الأولى لنكمل معا مسيرا حافلا من طفولة لن تنتهي أبدا.***

***أنا اليوم حامل في الشهر الثالث ,أنا التي كنت أود أن أغلق أبواب قلبي للأبد. قطتي السوداء المبقعة بالأبيض, رزقت بثلاث قطط ناصعة البياض .إنها رسالة ربانية أخرى و كأنه يقول لي فيها انه من دخان الأشياء ينبت ما هو أجمل.أما صبارتي فقط غيرنا ما كتب على واجهتها, صحوت يوما لأجد "من يسقى حبا لن يذبل أبدا".***

***ها أنا اليوم أمام نفس المرآة التي أظنها تفخر بي.***

***احمل في أحشائي جنيني و بيدي جنتي و مبدأ حياتي. و على كتفي شعري المسدول و الذي نسيت انه تساقط يوما .بجانبي رفيق عمري الذي شكوتها غيابه يوما.***

***أمي تناديني وقت حليبي بعد أن منعت علي القهوة. حان الوقت لاستمتع بضحك صاخب بين "سجيد" و أمي الساعد التي علمني المسير, التي استمد القوة من خطوط وجهها الذي يسرد كل تعثر لي و كل ضحك .أتأمل تقاسيم وجهها تحت أنغام "ستون دقيقة حياة (أصالة) " وسط صخب القطة و صغارها و مطاردة "رحيل" لهم .اليوم أنا امرأة تستمد قوتها من ضحكات الناس الذين عادوا من على مقربة من الموت.***

***الحياة***

***إنها ابتلاء.***

***الابتلاء***

***انه يقين.***

***يقين بان الله يراك صلبا كفاية, يراك قدر الحمل. يقين بان الله يحبك و ميزك عن الكثيرين.***

***الاستسلام لم يكن امرأة يوما.***

***الموت لم يكن سرطانا يوما.***

***حتى الحياة لم تكن رجلا يوما.***

***سعيدة أنا اليوم بالمرأة التي أعددت و الحياة التي ُمنحتها و منحتها.***

***لا تدع خراب الخارج يؤثر فيك كن كما أنت دائما.***

***الكاتبة***

***هل هذه هي النهاية؟***

***لا أبدا... هذه كانت البداية فقط لقصة حقيقية لفتاة عادت للحياة من على حافة الموت,صاحبة الحكاية الآن لها ولد و بنت "أمل" و "أمجد" و "رحيل" التي لم يشعراها بالنقص أبدا.***

***قصة لزوج رفض ترك محبوبته الأولى, و تقبلها رغم نقص جسدها الذي لم يلحظه يوما ليقنعها بإعادة فتح قلبها لرجل حقيقي لا ينظر للمرأة على أساس شاكلة إنما روح...و ذكريات . ليبنيا بذلك بيتا مليئا بالحياة , الحياة التي منحتها لهم يتيمة كانت على وشك أن تنتهي حياتها هي الأخرى. ليوقن المحبوبان أن الحياة تعطى.***

***الخطوة الأولى لإنشائهما لجمعيتهما الخيرية ليمنحا الحياة لأكبر قدر ممكن من الناس.شعارهما دائما و أبدا "ما يسقى بالحب لا يموت أبدا"***

***هذه كانت حكايتنا الأولى ضمن مضمار حياة لبذور أزهرت رغم قسوة ربيعها .***

***نعم من بين الركام أزهرت.***

***مازال في جعبتنا الكثير***

***هذا إن أردت المتابعة فعلا.***

***إذن قررت المتابعة...***

***قصتنا هذه عن شخصية سورية لا أظنني أستطيع شرح كتلة المشاعر التي يحويها***

***غربة,وطن,مشاور وداع,كفاح,عادات...***

***الكثير من الأشياء التي صعب علي حتى تعدادها فكيف يكون وصفها؟***

***برقية وداع***

برقية وداع

***برقية وداع***

رسالتي هذه و إن كانت قد فتحت ,قد أكون في الضفة الأخرى من هذا العالم .

احترت عن أي وصية سأكبت ,أنا الذي لا أملك إلا القليل في أراضي الوطن .

الوطن الذي غصبه المحتل و ما ترك لي حبيبا أدفئ به قلبي.

رسالة للثانية عشر بعد منتصف الليل: ارحمي من تبقى من بعدي ليس الجميع يقدر على التحمل.

رسالة للعادات و التقاليد: كفاك قتلا للأحبة,الصهاينة يفعلون ذلك باحترافية.

رسالة لأمي: لا تبكيني ليس هذا مماتي الأول.

رسالة للبحر:أرحم زوارقهم فهم احتموا بك.

رسالة لفيروز:غني المكان في بلدي أصبح بال جدا.

رسالة للصحب:لا رسالة لكم سنترافق في آخر المشوار كما ترافقنا بادئه.

رسالة لـ"حياة" : محبوبة قلبي سآتي عما قريب .

محمد

هذا اسمي سمتني به أمي صاحبة العين الواحدة التي كنت اخجل بها في صغري, لتصبح مفخري بكبري. تلك المرأة الباسلة التي رفضت منح شرفها للمغتصب الذي اقتلع عينها أسمتني محمد و بعد كل مناداة لي و شتم لي, كانت تصلي على النبي عشرا و تدعوا أن تكون مع أمته يوما.

أنا محمد... عشريني العمر...شاب في العمر و كهل العمل و مسن تفكير.

أكل الشيب تفكيري أنا الذي غادرني الأصحاب, و ما عدت أشتم رائحة الياسمين .أين باعة الفرح لا أراهم سائرين؟أين فضول الجيران لا أراهم لي ناظرين؟و أين صخب أولاد الجيران لا أراهم مجتمعين؟.

أين الفرح لقد غادرني بين ما يسمى بقبل قليل و الحين .

ثوان حتى ما عدت أرى حائط الكفاح المرسوم بأيدي الثائرين.

مر على كتابتها سبع سنين .سار صاحبها لأرض الخلود و تداول أبناء حينا علبة الرشاش...ليست قنبلة فنحن صناع السلام,كانت قارورة طلاء اسود يخط تفاصيلنا السوداء تفاصيل الغموض و الشهامة و البهاء.

انه حائطنا الذي عايش قصص الحب و الكفاح بالحجارة, لم يقدر اليوم على حماية مرمميه

لكنه أبى أن يرانا منكسرين. الوحيد الذي خشي دمارنا .

لقد سقط ...فوق جثث مرمميه,حتى لا يمس طهرهم سوى النسيم ...لقد غطى ظهر و مفاتن "حياة" من أعين الراصدين.

عدت بعد جهد يوم جهيد لاختلس ساعات من النظر أمام بيت "حياة" من جديد.

من باب القرية

لا رائحة لـ"حياة" و لا رائحة للحياة.اسمع فقط التراتيل تكبيرات بين الحين و الحين

أسرعت مهرولا للبيت أتراه أصابك مكروه يا أماه يا أم العين ؟

بَكيت بذات العين...بكيت جداري و صحبي و من كانت ستكون مقاسمتي للدين.

رفعنا جثث أحبائنا اليوم و سنعيد الكرة بعد حين مهللين مكبرين بائسين, بالشهادة فرحين

مناظرين للعرب منتظرين...

توقفت ساعاتنا و نحن ننتظر أتراكم أتون

دعنا منهم فهم لديار أنبيائهم خائنون دعنا نبكي الصحب و الرفقة تحت نشيدنا الملحون

قادمون يا جنة قادمون و للبلد محررون .

لا خوف و لا مكان للبقاء ...شم و زمزم هذا التراب الذي سيحضن نعشك تحت تجوال ذاك الغراب.

"أمجد"و "خليل" رفيقا عمري و شهيدا اليوم ,صديقا طفولتي اللذان انتظرا يوم الرقص على أنغام الدبكة السورية يوم زفافي من "حياة" التي توفيت معهم اليوم.

لا اعلم هل اتفقوا على خيانتي في مغيبي أم أن القدر خطفهم بلا موعد؟ .

حلم لعين

أنفقت به عمرا لكنه لم يتحقق ...ذاك الحلم لم يستحي من شحوب وجهي و اسوداد عيناي و زوال صحتي .لم يأبه للكم الهائل من الكافيين الذي تجرعته و لا للجهد الذي ما وفرته

ذاك الحلم اللعين بمساعدة المستبد التافه ,لم يأبه لقتل قلب في مقتبل العمر. من قال أن الموت من يقضي على الحياة؟بؤس الخسارة هو من يفعل.خسارة الأصدقاء تفتت الروح.خسارة حبك الأول أيضا يفعل.أظننا سننهي حياتنا بالصراخ تمام الصرخة الأولى من الحياة...خرجنا باكين و نحن نعيش كذلك و لن نموت إلا كذلك.

كنت عالقا بالمنتصف مشكلتي كانت مع المنتصفات, كنت عالقا بمنتصف العمر. لا عمري كان قادرا على جعلي أتجاوز هذا الخراب و لا كان صغيرا للحد المطلوب الذي يخول لي السبيل للبكاء بأحضان أمي. كنت عالقا في المنتصف, ما بين الهذيان و التجاوز. كنت اشعر أحيانا أني أهذي بظني أني تجاوزتهم .عالق في منتصف اتخاذ القرارات... قرار مواصلة المسير أو التوقف.

 اتخاذ القرار هو الصعب، وليس تنفيذه , فما إن تتخذ قرارك لن يقف بوجهك احد. وحدها أنصاف الأشياء من تقف في وجه اتخاذ القرار.

لكني اتخذت قراري و كتبت :

العالم ظالم هنا و مظلم يا أماه . انه خاو جدا من دون الصحب و الخلان, أظنه الوقت المناسب للمسير... المسير نحو معرفة المصير بلا مقدمات. فقط وددت إخبارك أني لم أحب شيئا قدرك .و لم يكن لي مثل أعلى غيرك .فقط وودت لو أعطيتني نظارتك لأرى الأمل الذي تبصرينه . وددت لو أعطيتني حذائك ليقود أقدامي دائما و أبدا نحو الساجد. لم اشبع انفي من رائحتك سامحني الله...

ثم رحلت...رحلت دون إبصار للخلف, خوفا من عيناها اللاتي تمنعان مغادرتي .

استحلفت "إبراهيم " أن يقرا الرسالة لامي بعد رحيلي.

"إبراهيم " عم كهل يجيد القراءة ,لطالما اعتبرته بمثابة أبي. و من يومها لم يصلني شيء.

أتراك لم تعد قادرا على القراءة يا عم؟.

ركبت قارب الموت الذي لم يختر قتلي . أقلتني "سام" التي عرفتها من مدة على الفايس بوك , دائما ما كانت تقول أنها ستستقبلني إذا ما زرتها ببلدها . اليوم لأول مرة أقابل بها "سام" ,شقراء طويلة, بعينان تشبهان البحر الذي قطعته . كانت "سام" أشبه بالملاك تهتم بأدق تفاصيلي ,و ساعدتني بالإلتحاق بمقاعد الجامعة. لم أكن أحب الإطالة بالنظر لعيناها, إنهما يرياني البحر الذي نجحت في تجاوزه و الذي نجح هو الآخر بإبعادي عن أحبتي. "سام" لم تتمكن من إعادة طعم الحياة الذي ذهب مع "حياة" إنها رغم مثاليتها بكل شيء إلا أنها لا تجيد جدل الضفائر, لا تضع المسك الذي تصنعه "حياة" بنفسها ,انها تضع كولونيا تقليدية مطابقة لفتاة ركبت بجواري في الباص, أما رائحة "حياة" لم أشتمها بغيرها ,لقد صنعت الفارق بمخيلتي ,لم أجد لها بديلا أبدا . ذنب "سام" أنها نسخة معاصرة توجد بكل مكان .إنها تشبههم و لا تشبه "حياة " ,و لا شيء يشبه "حياة" .

لا تشبهها... كانت تذكرني بمقطع موسيقي لأدهم نابلسي يقول: أنا عم دور بعيون الكل...عنسخة منك طبق الأصل حتى فيها انساكي.

هجرت البلاد لأبحث عن البلاد.

إنهم لا يبيعون التفاح المغطى بالسكر الأحمر, ولا حتى الشاي الدافئ. لا يتغنون بالنشيد .

بارعون في مشاهدة كرة القدم لكنهم لا يمارسونها حفاة الأقدام كما نفعل نحن.هربت من الوطن لأبحث عن الوطن.

حتى إكمال الدراسة لم يعد يهمني .أنا الذي ادرس الحقوق في بلد ضاعت منه الحقوق.

عامين

أكملت دراستي ولابد من العودة لأرض الديار.

لم تمانع "سام" أبدا بذلك رغم أن عيناها فضحت الكثير . ساعدتني بجمع أغراضي بدخان واضح بعيناها ,بأنين كنت أسمعه ليلا , بحضن دافئ و كلمات رقيقة ودعتني بالمطار قائلة :

\_طريق السلامة.

لقد أجادت كلماتنا ,أن تحب شخصا ستقتني كلماته و حركاته ,ستحب دياره رغما عنك.

كانت تلوح بالوداع و بحر عيناها يفيض دون توقف. لقد كانت جريمة أن أغرق وجهها القمري بذلك البحر العميق الذي لا حصر له. أجرمت مرتين بنفس الجرم "رحيل بلا مقدمات" كان ذلك كل ما أجدت فعله .

عامان ...

ها أنا ذا.

فوق تراب القرية على مقربة من بابها.

توجد ندبات أخرى به , يبدو انه حدث الكثير من التراشق بالحجارة في غيابي. العم "إبراهيم " بائع الشاي الذي كنت ألاقيه أولا عند الباب لا المحه. رحت أسأل في الأرجاء

كسرني قول الصغير "عظم الله ٱجرنا،وليسلم الوطن" .عن أي وطن تتحدث يا هذا, وطننا ينزف...ينزف رجالا.

مسحت أدمعي و سرت باحثا عن المقهى .لقد ٱغلق و شمّع بابه, لم اعلم السبب بعد.

\_ محمد.... محمد

إنها الخالة سلطانة رفيقة نسيج أمي الدافئ , تحضنني و تبكي.

**\_**أين كنت يا ولدي... تعال تشرب شايا لأشبع عيناي منك يا شبيه أمك

\_ٱسف يا خالة سأرى أمي بالأول ثم آتي.

 \_لكن...محمد...

\_قلت سآتي يا خالة.

دخلت فناء البيت

ما به زرعنا و وردنا... لقد ذبل أتراها أمي ملت سقايته من بعدي أم ماذا؟

دخلت البيت ,وضعت حذائي جنب شحاطة أمي,يبدو أنها خارج البيت فشحاطتها هنا.

دخلت البيت شيء غريب ...

لا رائحة للخبز و لا للمحاشي, لا صوت لعبد الباسط عبد الصمد في البيت.الأثاث أصيب بغبار خفيف. صرخت بملء ما في من صوت:

\_أين أنت يا أم العين ؟ أتراك هرمت أم ماذا ؟ يا أم العين أنا عدت أنا جائع.

لحقت بي الخالة سلطانة مرتجفة الأنامل مرتعشة الصوت:

\_ "محمد" يا ولدي دعني أحدثك...

إنها المقدمات البائسة من جديد ولا أود التصديق ,لم استمع لها , وددتها لو تختفي.

أماااه \_يا أم العين هل تودين رحيلي هاا

اجيبي ااه ...قلتها بكثير من الآه , بكثير من الوجع ,بكثير من الفقد...

\_أين عهودك أين الأبد الذي حدثتني عنه ,آه

رحت أقولها في الأرجاء باحثا عنها .كنت انظر تحت السرير, لا اعلم فقط كنت أود إيجادها :

\_أماه أين أنت من سيذهب ظمئي بعدك؟ لقد عطشت كما وافرا من الحنان,لقد رجعت أين أحضانك ؟ أين أضع زاد الوجع؟ أريد قبلتك المعهودة... أريد يداك لأفرغ بهما حمل أكتافي التي شبعت تعبا. هل اتفقت معهم يا أماه؟ هل فعلت مثلهم و رحلت دون إنذار؟

لا تعاقبيني هكذا أرجوك . لن أغيب بلا مقدمات مجددا, لا تعاقبيني بهذا الشكل أرجوك.

أيادي تمسك برأسي و تضمه , لكنها لا تشبه أيادي أم العين ,مشبعة بالحنان أنت يا خالة سلطانة .لكنها ليست كف أم العين إنها تفتقر اللمسة.

\_لقد غادرتنا أمك.

أين المكان الذي اتفق الجميع على الذهاب إليه؟ كيف يكون هذا المكان الذي من شدة بهائه تعجلتم في الذهاب دون إخباري.

ماذا يفعل المرئ حين يغيب أحبته؟

تراكمت الأصوات داخلي...داهمني صوت شبشب جدي المتثاقل و هو يمشي

انه نفس الشبشب الذي أدى به للموت...أصوات إبريق الشاي تصفر داخل رأسي و ترفض التوقف,ضحكة "حياة" تدق مسمعي... إنها أصوات الرفاق لمباراة شطرنج لوهلة حسبتها حقيقية ,بهذه البساطة و الجمال كانت حياتي.

عامان تغير فيهما كل شيء

اذكر صديقا لي كان يود أن يمنح له قميص كرة قدم يحمل اسمه في إحدى الأندية التي تحمل ألوان الوطن , لكن شريطة أن يحمل الرقم 11.

لا اعلم إن كان منح له أم لا ,لا اعلم أين هو, ولا إن تغيرت أمنيته أم لا.

كل مع اعلمه أن أمانينا جميلة و بسيطة بهذا القدر.بسيطة بالقدر الذي لا تتحقق به.

سرت أميالا لا حصر لها,لم تكن القرية كبيرة يوما لهذا الحد,لا اعلم ما إن كانت دائما كذلك أم أنا من اكتشفها بهذا الطول للمرة الوحيدة التي أمشيها لوحدي.

‏كان بي ألم لا يبكى, لا يحكى ,لا يمنح ولا يزول. كنت اخمد كل مرة حتى انطفأت تماما, غيابهم المتتالي قضى علي تماما. جسدي كان هزيلا، لم يقدر على تحمل صقيع قلبي.

متى تحولت حياتي لهذا الجحيم ؟ سرت خائفا من أن أشق نفس الطريق, أخاف الانكسار.

اليوم فقط علمت لما كانت ذات العين تمعن النظر في يومها , يبدو أن قلبها اخبرها انه لا لقاء لنا بعد ذاك اليوم.

كل الطرق كانت تؤدي للديار لا أعلم كيف خرجت منها يوما . استجمعت شتاتي و دخلت البيت , الخالة سلطانة على مقعد أمي على مقربة من المدفئة تنتظر عودتي :

\_ماذا عن كل تلك الرسائل الم تصل أي منها يا خالة سلطانة؟

\_لا يا ولدي لم يصلنا شيء ,كانت تبكيك بحرقة كل يوم. لم تعلم ما إن كنت ضائعا، ميتا أم متزوجا. اخبرها الأخ "إبراهيم" انك ذهبت لتكمل دراستك, قالت سأفخر به يوما حين يعود و سأضربه بالشبشب الذي خاف منه طول عمره. أراضينا أغلى من أن تستبدل أو تهجر.

قالتها و بكت، بكت رفيقة طفولتها و صديقة نسيجها و زرعها الذي كانتا تتشاجران عن أجملهما.يبدو أني سرقت حياتها هي الأخرى.

الحياة قتلت الجميع، و ميزتني عن الغير,كانت تقتلني ببطء. تأخذ أحبتي الواحد تلو الآخر

ولا تسمح لي حتى بإلقاء نظرة أخيرة.

لم استطع التحرك من مكاني لم اعلم هل أعود لـ"سام" و احكي لها ما تبقى من خسائري أم أكمل مسيري في الظلام المعتم بعد أن فقدت خارطتي في وطني.

أشرقت الشمس بعد ليل طويل في أحضان لحاف أمي. ليل رحت ارتشف فيه رائحتها رويدا رويدا ,خفت ضياعه... خفت أن يسبقني الهواء في ارتشافه. استمع تارة لفيروز و تارة أخرى لعبد الصمد الذي أحبته أمي.

لم اعلم شمس أي يوم أشرقت

اختلطت الأيام و لم يعد لتاريخها أي معنى.كان يخيل لي انه إن أطلت البقاء في الفراش ستٱتي لتعاتبني,لتشتمني ثم تقبل يداي بعد أن أصبحتا بحجم وجهها المكور الدافئ المملوء بتعابير البساطة و الحب, لتجرني من يدي قائلة: سيبرد الشاي و تبرد معه الفطائر.

ثم اخرج تحت دعواتها الصباحية بحذائي الذي كانت تلمعه بعد صلاة الفجر,اخرج لألاقي "احمد" و "خليل" ليصدعا راسي بمباريات كرة القدم.

نمر بالمقهى الذي رشت أرضيته صباحا ليعبق المكان برائحة التراب ، ليس أي تراب تراب الأراضي السورية.

على مقربة منها العم "حسان" الخضار المتواضع يعزف على عوده الذي صنعه بنفسه رفيق عمره الذي ما فارقه يوما.

نسير في وفد غفير وسط صيحات الأطفال هنا و هناك ليودعنا العم إبراهيم على مقربة من الباب.

كنت ٱمل أن ترجع بعض من أيامنا ببساطتها و بهائها.لم اعلم متى تحول هذا المكان الشبيه بالجنة لهذا الخراب؟

طرق خفيف بالباب...

هرولت مسرعا محتفظا بتخيلاتي التي هيئت لي أن الطارقة "حياة" تحمل كريات الصوف الناصعة البياض بيديها الناعمتين لتتعلم نسج الأقمصة التي ما أزال احتفظ بها في علبة محكمة الإغلاق. لقد غرت حتى من الهواء أن يلامسها.

إنها الخالة سلطانة:

\_"محمد" تعال لتفطر معنا "يعقوب" بانتظارك

"يعقوب"

يعقوب" الذي اختار الطريق الأبعد عن الدراسة "ابن الخالة سلطانة عشريني العمر، اختار طريق الإنتقام . أعرج الرجل، مشوه الأذن، قلع خنصره و سبابته بعد أن اعتقل بسبب تنظيمه لمظاهرات تتغنى بالحرية.

قطعت سبابته بعد أن سئل عن الله و أشار للسماء موحدا مكبرا. ليقطع بعد ذلك خنصره الذي وعد به صحبه على الكفاح , ثم شوهت أذنه بعد أن كبّر مكررا وراء الآذان,ليهرب برجله السليمة يجر رجله اليسرى التي بالكاد تتحرك.

الخالة سلطانة لم تقدر إقناعه, ما يزال يشارك بكل التظاهرات يتغنى بالحرية المسلوبة محملا بحجارة الوطن التي لا نملك غيرها.

خرجت رفقة الخالة سلطانة البس نعل أمي لعل بركتها ترافقني في كل مسير أخطوه

سرنا خطوات تظهر لي و كٱنها أميال لا تنتهي. لم اعهد الطريق طويلا هكذا من قبل دخلنا البيت، إنها رائحة الديار أخيرا.

لمحت الدمع بعيناها، مرّ وقت طويل على آخر مرة رٱت فيه الخالة سلطانة شبشب رفيقة دربها عند مقربة من الباب. لقد قتلت كلي بنفسي،ٱنا من تسبب بقتل نفسي

جلست بنفس الكرسي الذي كانت تجلس به أمي دائما ,و كأنهم امتنعوا عن الجلوس به ليبقى مكانها فارغا و يذكروها كل جلسة شاي.حتى أنا لم أتمكن من سد ذاك الفراغ..

\_أهلا بك يا "محمد " في ارضي الديار من جديد.

 \_ما الذي حدث لوجهك؟

بصوت مبحوح ساخر:

\_إنه هروب آخر.

شربنا كأسا دافئا من الشاي أو بالأحرى كانت أربعا أو لا اذكر, كل ما اذكره أني شعرت بالانتماء و الأمان,شعرت بالديار و برائحة أمي.

\_ما الذي فعلته يا "محمد" خلال هذه الأعوام؟

\_أكملت دراستي لا غير.

\_ألم تتزوج؟

\_لا لم أفعل

ارتشف قليلا من الشاي و تنهد :

!\_حياة آه

\_نعم لم اقدر على تجاوزها.

\_لا أعلم ماذا اقترفنا حتى نجني كل هذا، لا الديار أنصفتنا و لا الغربة ساعدتنا على التجاوز.

\_أظننا مذنبين في التفكير بالتجاوز يا أخي ، تجاوز البلد، الأحبة, الحب الأول، و ما شابه ذلك، لم يهتم أحد بكنيتي هناك يا أخي "يعقوب" منحتني الغربة "سام" التي احتوتني بكل شوائبي، بكل تناقضي... كنت كالبلاء، تقول أنها جرحت أحدهم يوما, و يبدو أن الله رزقها بحبي كفارة على ما فعلته به، كان البقاء معي أشبه بالجحيم.

كنت اصمت كثيرا، أقاطع موضوعها المهم الذي تحكيه و هي على وشك البكاء و أسرف في الضحك في عز وجعها, أبالغ في الانعزال عن الناس و لم أتقبل أصدقائها.

كنت مزاجيا بحد لا يطاق، لكنها أطاقته.

الحب غبي يا "يعقوب" لا اعلم إن كان بلاءا كما كنت أنا بالنسبة ل"سام" أم ابتلاءا كما كانت "حياة". نهضت يوما بدون مقدمات تماما كما ذهبت جئت .

لم تمانع، لم تصرخ...رأيت بعينها كفاح بكاء. تمام الكفاح الذي نخوضه نحن هنا.و رأت مني تجاهلا كما نراه نحن من إخواننا العرب...عدت لحظتها لأصلي العربي اللامبالي.

كان دمعها يرجوني للبقاء، لكن عينها منعته من التدفق. فقط هي لم تقف بطريق أي شيء أردته يوما.

\_ألم تحبها أبدا.

\_كلا شعرت بالرعب من كونها مثالية ,لم أستطع تجاوز "حياة" لقد أحببتها بشوائبها و نرفزتها الشرقية ,لم يعجبني هدوء "سام" و تحليلها المنطقي للأمور أبدا .

حسنا ماذا عنك؟ الم تتزوج بعد؟

\_ليس قبل أن آخذ بثأر "سوسن".

"سوسن" قصة مماثلة لقصة "حياة" .وجع كنت اعلم تفاصيله جيدا.

إننا ننظم مسيرة حاشدة غدا في منطقة... \_هل تذهب!؟

\_كلا شكرا.

قلتها و اتجهت مرتديا شبشب ذات العين.

لم أبصر الطريق حتى وجدتني أتوضئ في المسجد، دخلت بعد زمن طويل لم أذق به الراحة. يبدو أن شبشبك يا أم العين من قادني لهنا.انه معتاد على هذا الطريق هو الذي صار باليا فقط من المشي على هذه الطريق.

بكيت كما كثيرا، بكيت الوطن، بكيت الرفق و الصحبة .بكيت ذات العين التي لم اشبع من تفاصيلها و سألت الله أن يلهمني الصبر. سألت الله الطمأنينة و من يومها لم أحلم أبدا.

لم يتبقى شيء يستحق العناء و لم يعد هناك شيء لتهددني به الحياة.

رجعت البيت... بيت الأهل الذي لا يبلى و لا يقدم.

نظفت أرجائه و أثاثه، مسحت إطارات الصور و غسلت قميص أبي و أزلت تجعلكه، رششته بالعطر كما كانت تفعل أم العين تماما. أعددت الشاي و فتّتُ الخبز و رميته للطير خارجا ,حملت دلو الماء و رحت انزع الأعشاب الضارة من الحديقة علها تسترجع رونقها

تماما كما كانت تفعل أم العين.

اتصلت ب"سام" لأخبرها أني بخير، أو بالأحرى لأني قطعت عهدا على نفسي بأن لا أرحل دون وداع مرة أخرى. اتجهت لحقيبتي، رميتها بحملها من أوراق التخرج بالمدفئة.

لا بأس بإحراقها فصاحبها احترق قبلها،صليت كثيرا و أمعنت النظر كثيرا.و اتجهت حاملا علبة عطر أمي نحو"يعقوب" نحو الانتقام..

صادفت العم "حسان" كبير القرية أعطيته مفاتيح البيت ليمنحه للأخت "سهام" المرملة بأربع أطفال، طالبا منه أن تهتم بالزرع لا غير.

دققت الباب، باب الخالة سلطانة ، فتحته فرحة برؤيتي

حضنتها زمنا طويلا أتذكر به الصغر، اشتمها و اذكر قول أمي بأنها كل شيء بالنسبة لها.

أمعنت النظر بعينيها، بشيبها, بالتجاعيد التي لم المحها سابقا.

لا اعلم ما إن كنت لا الحظ هذه الأشياء البسيطة أم أنا كنت سبب هذه الخطوط المتزاحمة بعد أن سلبتها رفيقة عمرها،و مقاسمة أدمعها.

اتجهنا للمقبرة، لأحضان أمي كلمتها طويلا، بكيتها بحرقة

\_لقد أتيت يا أماه، ألن تحضنيني؟ ألن تشتمي وحيدك يا أماه؟

 اشتقت ليديك، أود تقبيل جبينك يا جنتي أنسيت وعدك، لم تكذبي يوما، كيف تركتني لكل هذا لأواجهه وحدي. العالم باهت جدا هنا، بارد جدا. ليشهد الله أني راسلتك كل يوم يا وحيدة قلبي لاقاني الله و إياك بالجنة إنشاء الله.

رجعت رفقة الخالة سلطانة للبيت، جلست رفقة "يعقوب" :

\_نعم أود المشاركة في المسيرة غدا.

\_لكنك تعلم كل الاحتمالات أليس كذلك؟ يمكن أن تستشهد، أو أن تعتقل، و يمكن أن ترجع برجل واحدة يعلوها وجه مشوه كحالي. هل تود الذهاب فعلا؟

\_نعم لا رجعة في ذلك، أظنه الطريق الأقرب لأحضن أمي.

\_حسن،لكن إياك و أن تخبر أمي بذلك فهي حتما ستمنعنا.

أمه الخالة سلطانة التي تذرف أدمها بصمت على مقربة من الباب، كانت تسمع كل شيء و تعلم أنها لا تقدر على منع شيء.كانت تجيد كبت إحزانها و هذا بحد ذاته أحزنني..

أتراها أم العين مثلها كانت تعلم ذهابي يوما. قلوب الأمهات لا تكذب،و دعواتهم لا تضيع، لهذا ما أزال بخير تماما كما دعت.

سكتنا لبرهة لان الخالة سلطانة دخلت حاملة سينية الشاي، تمعن النظر بأعيننا ترانا صحيحين رغم كثرة أخطائنا، عيون الأم لا تبصر الشوائب أبدا.

لم اعلم كيف اهرب من عيناها اللاتي كنت اشهد بهما حطاما لا حصر له

كانت نفسي متْعِبةٌ حقا،تمنيت طردها خارجا...خارج جسدي و كأنني خلقت لأحطم شعورهم... شعور الأمومة.

لكنني لن أرجع للخلف , لن أستسلم حتى ألقاك يا أم العين.

وقفت على مقربة من الشرفة أناظر الغروب, تماما كما كنت أناظر غروب سعادتي يوما.

أضع جنبي إبريق الشاي...

أمعن النظر به، أشتمه و أرتشفه رويدا رويدا ليرسخ ملمسه على لساني,كنت أودع الديار بمقطوعة فيروزية تقول : الطفل في المغارة و أمه مريم وجهان يبكيان...

طفلك يا أماه في مغارة الحياة فلا نجاة غير الشهادة.تقول في مقطع آخر:

الغضب الساطع آت... سأمر على الأحزان...

سمعتها مرددا إياها, معاهدا نفسي أني سأمر أنا الآخر على الأحزان.

 *الخامسة صباحا*

\_"محمد" انه وقت الرحيل.

دخلت غرفة الخالة سلطانة دون حذر,هي لم تنم الليل بطوله ...لن أخاف ايقاضها.

قبلت جبينها ,أخبرتها أن الديار موحشة بلا أم و رفق و حب و سلام, أخبرتها أن أفضل طرقنا للنعيم أي الاستشهاد ’أخبرتها أن "يعقوب" أمانة برقبتي و لن يمسه ضر ما حييت.

حلفتها بعزة الله و معزّة ذات العين أن تسامحني. صعب تنفسها و ما صعب علي هو سماع بكائها.على مقربة من الباب

\_ الخالة سلطانه سأخبرك سرا :

زرعك أجمل من زرع أمي اعتني بكلاهما، و طوقك المفقود أهديته لحياة بعيد ميلادها أظنك تعلمين ذلك لكني وددت إخبارك انه فوق الطاولة, لقد تركت رسالة لك أنت أيضا

فأنا خلقت لأكتب الرسائل، برقيات الوداع.

حملت منديل أمي به تراب بيتها الجديد الذي استوطنته من دوني,صلينا الفجر و اتجها لننشد الحياة، لنتغنى بالحرية,حاملا معي كما ثقيلا من الأسفار و الأمتعة...ذكريات لا حصر لها أثقلت كتفي.

خمس و أربعون دقيقة...

وجدت نفسي ضمن كم غفير يهزج و يزجر... الموت الموت الموت... الموت ولا الاستصغار.لافتات مكتوبة بألوان العلم السوري الذي يحرك الانتماء بداخلك.

لافتات سلام بيضاء تتغنى بالحرية,تتغنى بالوطن.

بدأ "عقوب" ينزل اللافتات و يصرخ بحمل ما تقدر عليه حباله الصوتية:

\_الله اكبر... سوريا حرة... الله أكبر.

كنت ضائعا وسط هذا الكم الهائل، لا عدّ لهم أطفال...شباب...كهول و شيوخ.

كنت أستوعب الأمر حتى أمسك بيدي "يعقوب" محدثا

 \_أتراك ندمت أم ماذا؟

لم أحرك ساكنا شيئا ما داخلي صرخ بي حتى بحّ صوتي:

 \_الله أكبر... سوريا حرة.

سرنا وسط الحشد مطالبين بالحرية بكل الأشكال السلمية.

و ما هي إلا دقائق معدودات حتى نزل جيش النظام يقصف محافل شعب يتغنى بالسلام. كانت أكثر أسلحتنا خطورة حجارة طينية بلديّة لا تصيب بمكروه... طينة بلاد تتغنى بالسلام تمام أهلها. الجميع يسير للوراء... رصاص مطاطي بكل مكان,قنابل مسيلة للدموع حجبت رؤيتي، شد كفي "يعقوب" متراجعا للوراء، يريني السبيل و الطريق للمرة الأولى.

لم تتوقف الهتافات، بل امتزجت مع صيحات ألم ينبع من الصميم تقدمت دبابة ضخمة يعلوها جندي يرمي الرصاص بعشوائية, غير آبه للضرر الذي يمكن أن يُحدثه.

لم يكن بوسعنا فعل شيء غير الهروب و الرجوع للسيارة حتى يهدأ الوضع.

ركضت لاحقا بـ"يعقوب" الذي لم يندهش أبدا كونها لم تكن مرته الأولى و لن تكون الأخيرة إذا ما بقينا على قيد الحياة.

كنا تركناها على مقربة من مكان التجمعات السكانية ,دخلنا الزقاق راكضين لنجد عساكر يحاوطون المكان و يعتقلون كل من شارك في هذه التظاهرات.

تضخمت الأصوات برأسي، الجنود يصرخون آمريننا بالتوقف، "أنور" قائد السيارة اعتقل و ربطت أياديه خلف ظهره يصرخ آمراَ إيانا بالهرب.

هرول "يعقوب" مسرعا للإتجاه الآخر مطالبا أن ألحقه تحت زخات كالمطر من الرصاص المطاطي. تجمدت مكاني و لم أقدر على الهروب، أصبت بشلل و لم يقدر عقلي ارتمى "يعقوب" وسط أشجار أخفت أثره بالكامل. لم أتمكن من اللحاق به فما إن قررت الهروب حتى وجدت سلاحا مصوبا لرأسي. لأجد نفسي بالأرض أتلقى ركلات لا حصر لها، انهال علي أربعة منهم بالضرب المبرح ,واستعمل أحدهم سلاحه لفتح رأسي... ضربات متتالية لم أشعر بألمها، غطى الدم وجهي بالكامل لكني لم أشعر بالألم. يصل الإنسان لمرحلة التشبع حيث لا ألم بعد اليوم. حجارة بكل مكان كان أبناء بلدي يحاولون تخليصي من أياديهم لكنهم لم ينجحوا، أو بالأحرى أنا من لم يعد لديه الرغبة بالخلاص. عجزت... عجزت عن المقاومة لا غير.

دقائق حتى أصبح العالم معتما و أصوات التكبيرات بعيدة، ربطت يداي للخلف و غطوا عيناي بقماش أسود أشبه بواقعنا المعتم، و قادوني كما تقاد القطعان. ركبت هذا الشيء الذي لم أبصر حقيقته ثم فتحوا عيناي

مسنون ينزفون، شبان تسيل أنوفهم، كدمات و رائحة دماء بكل مكان.

شعرت بالرعب لوهلة ، لم أحس يوما بهذا رغم التفاصيل التي حدثني عنها "يعقوب"

كنت أبصر هذا الخراب بعين واحدة بعد أن أغلقت عيني لإنتفاخها من شدة الكدمات، أصبحت بعين واحدة مثلك يا أماه...

لمحت "أنور" بالجهة المقابلة بكاحل ملتوي و ووجه مبقع بالأزرق، يعتليه كم وافر من الدماء يسبح بها قميصه الأبيض، قميص بلون السلام. هكذا يكافحون السلام في بلدي بالكاد استطاع تحريك فكه الملتوي:

\_هل أنت بخير؟ستعتاد

\_نعم أنا أفعل

قالها ببسمة جانبية ساخرة، تسخر من القدر تستصغر العدو.

تحركت العربة التي تقلنا متجهة لمكان لا نعلمه، ليتم عصب أعيننا من جديد عند توقفها.

نزلنا مكبلي الأيدي تربطنا سلسلة طويلة نجر بعضنا بعضا.أدخلنا مبنى لا نعلم شكل خارجه .نزعوا ملابسنا و انتزعوا مني عطر أمي و تراب قبرها. انتزعوا كلي للمرة الثانية و لم يعد هناك شيء يستحق القلق.

أدخلنا بعد أن أشبعوا ظهورنا ضربا لنجد ما يقارب المائتا شخص في غرفة واحدة كم غفير و لا مكان للجلوس ولا مكان حتى للوقوف.تقابل الغرفة التي وضعنا بها، غرفة أخرى مظلمة لكنها فارغة في الجهة المقابلة زنزانات النساء .الكل ينزف هنا لم يكن هناك أحد على ما يرام

اتكأنا على الجدران محملين بالألم الذي تسببوا لنا به

\_"أنور" هل أنت على ما يرام؟

\_نعم،ماذا عنك؟

\_الحمد لله، أين نحن و ما هذا الكم الغفير؟

\_انها زنزانة الاحتجاز سيجبرونك على قول كل ما تعرفه بشتى الطرق،لن يكون هناك شيء سهل هنا، حتى الذهاب إلى الحمام يستوجب منك الفطنة، فما إن تخرج من الباب حتى تتلقى الضربات بعصى مسننة حتى تصل للباب المقابل، باب الحمام. ستكون الأرض مبللة و إن سقطت هناك ستلاقي حدفك حتما، سيضربونك حتى آخر نفس فيك ثم تلقى في نفس الحمام ليتم رميك غدا بمكان لا أحد يعرفه.

سمعت كل هذا دون أي حراك لقد كنا متراصين حيث لا مكان للحراك,الكل متعب... ضوء خافت و هواء يكاد ينعدم، رائحة الموت بكل مكان، رائحة العرق تسبب الغثيان و تجعل التنفس شبه معدوم.

تركت مكاني ل"أنور" ليستريح قليلا ، حتى سمعنا صوت صراخ بالأرجاء، أصوات لإطلاق النار، ثم أدخل خمسة شبان لا مكان حتى لوقوفهم.

ما عدى شاب واحد بزق بوجه الجميع كما حكى لنا أقرانه و رفض نزع قميصه فكان مصيره أن يعذب بشكل خاص في الغرفة المعتمة التي تعمدوا على ظهور شيء من وحشيتها، بمختلف آلات التعذيب التي كانت رسالة غير مباشرة لنا بوجوب الاعتراف

مرت ثلاث ساعات دون أي جديد، لقد ازرقت أقدامنا و لم نعد نشعر بها من شدة البرد و ألم الوقوف .ثم دخل ضابطان مسلحان، عصبا أعين خمسة ممن جاءوا معنا لمكان لا نعلمه ,لنبقنا أنا و "أنور" و شخصان آخران. مر على رحيلهم ما يقارب ربع ساعة. كنا نسمع صراخا لا نهاية له...

دقائق معدودات حتى فتح الباب ليرموا لنا بشابين بحالة مزرية,هرعنا لمساعدتهم على الوقوف لكن بلا جدوى .أما الثلاثة الباقين فقد جروا ليرموا داخل مكب للجثث،ليكونوا صباحا بمصير مجهول قد يرمون في حفرة واحدة و قد يمنحون للكلاب التي اعتادت رائحة الدماء البشرية.

ضمدنا جراحهم و استعددنا لنكون نحن القادمين..

كنا منشغلين بالشاب المجروح حتى بدأ الصراخ في الأرجاء، كلاب تنبح ...أصوات مزدحمة... ضابط يجر شابا مغطى الرأس من قدميه التي ربطتا بسلسال حديدي نحو الغرفة الانفرادية و ضابطان آخران ينهالان عليه ضربا.انه نفس الشب الذي افتعل الشجار منذ قليل هذا ما قاله الشابان . توقفت عن الحراك بعد رؤيته

 أنور :

\_إنه"يعقوب" يا "محمد" لقد أمسك به .

تسربت وسط الزحام محاولا الوصول لشرفة الغرفة المقابلة، رُبط "يعقوب" مقلوبا من عقبيه و رش بماء بارد بعد أن جُرّد من ثيابه. كان فاقدا للوعي و لا يدرك أي شيء يدور حوله من شدة الضرب

من أين يبدأ الذي يريد إنهاء الرحلة بخطوة واحدة؟ كنت أريد الوصول إلى "يعقوب" لأحافظ على أمانة الخالة سلطانة...كنت أريد إيقاف نزيف كل من في الحجرة...كنت أود الوصول للعم "تحسين" الذي كان يبصرنا بالدقائق المعدودة التي تبقت له بسبب كبر سنه و الجروح التي أصيب بها لم يقدر على تحمل البرد و قلة الهواء، سقط هاويا كقطعة فخارية عتيقة... سقط هامدا بلا حراك و سبابته نحو السماء...فمقابل كل سقوط ارتفاع سقط دمعنا و ارتفعت تكبيراتنا ...أحببتهم جدا بالوقت القليل الذي تعرفت به على الجميع كانت تجمعنا أهداف و تفرقنا نهاية أرزاق. وحده القدر من كان قادرا على انتزاع ثباتنا من على هذه التربة.

\_يبدو أن كلبا آخر قد تعفن أخرجوه ...قالها قائد الجنود الذي كان يلقب نفسه بـ"عزرائيل" كان يقضي على المستجوبين دون أدنى تأثر بعد تعذيب طويل الٱمد.

دخل جنديان مسلحان، يضربان بعصيهم كل ما يواجه طريقهم ما أجبرنا على التكتل و إفساح المجال لهم ليعبروا بأقل الخسائر .وصل أحدهما للعم حسان يجره بأطراف أصابعه من شعره، و كأنه مشمئز منه. ثارت كرامتنا، تألمنا بدل العم تحسين الذي اختار الرفيق الأعلى .أخرجوه لوجهة لا يعلمها أحد تمنينا فقط لو يدفن بأرض الوطن الذي عانى لأجله.

بدل العم تحسين رمى الجنود بشابين آخرين مَفْتوحِي الجراح، زاد اكتضاضنا و لم يعد هناك أي مكان للوقوف.كانت إستراتجيتهم استبدال كل ميت بشخصين آخرين على وشك الموت أيضا .جُرّ "سفيان" مقطوع البنصر رفقة ابن خالته و نساء أخريات

\_سنحتفل بعرسك هنا يا حبيب أمك

دخل تحت سخريات الجنود مطأطأ الرأس يبدو أنه اعتقل يوم زفافه، اليوم الذي كان سيذكره طول حياته لو انتهى وسط الدبكة السورية.

دخل جنديان آخران و ساقاني رفقة "أنور" لغرفة مظلمة، يتوسطها كرسي هش و طاولة مشبعة بالدم:

\_ما اسمك؟ كم عمرك؟ ما عملك ؟ من يدعمك ؟

أسئلة سهل الإجابة عليها .كان الخوف باديا على محياي الأمر الذي أعجبهم عكس "أنور" الذي اعتاد كل هذا، كنت أسمع صوت اللكمات التي كان يتعرض لها

\_ ما اسمك؟

 يجيب :

" أنور"

\_من الآن و صاعدا سيكون اسمك "جابر". ما اسمك ؟

 \_"أنور"

تكرر الأمر زمنا طويلا، كنت أسمع صراخ "أنور" بعد كل إجابة يتعرض فيها لسعق بالكهرباء .ما يقارب النصف ساعة و نحن على هذا الحال حتى أغمي على "أنور" تماما. فتح احدهم وثاقي و نزع حجاب عيناي. كان "أنور" منهارا تماما و غير قادرا على الحراك،كاحله ملتوي و فكه انتفخ، بعين مزرقّة و شاربان توقف الدم عن السير بهما .

\_أنت ترى صاحبك و حاله،أخبرني الآن، أنتم جماعة إرهابية مسلحة تحاول تمويل الشعب، من ورائكم؟ ما اسم قائدكم؟ من أين تحصلون على التمويل و الدعم؟ هل أنتم سوريون حقا؟

أسئلة أجاب عنها "أنور" بالنفي مسبقا، لكنهم كانوا يودون سماع إجابات أخرى،لم يريدوا الحقيقة أبدا.لا أحد يريد الحقيقة هنا.

لكمات كثيرة لا حصر لها، لا أعلم من أين أتلقاها حتى.

\_إسمك الآن "جابر" رقمك 16

لم أفهم غايتهم من ذلك لكنني أجبت \_ ما اسمك؟

\_جابر 16

ابتسم قائدهم وقال \_أحببت تعاونك، أو لنقل استسلامك. عليك العودة من أين جئت. وضعت "أنور" على كتفي الذي لم يكن أحسن بكثير من كتفه،و خرجنا لنعبر الممر الذي يؤدي للزنزانة ...جنود كثر بالممر، الكل يرمينا بلكمات عصيه. غطى "أنور" رأسه بصمت يعبر عن العجز... لقد عجز حتى عن التعبير عن الألم.

دخلنا الزنزانة بعد عناء طويل.

بلهجة سورية مشبعة بالجمال الكل يقول :الحمدالله علا سلامتكو، بتهون انشالله الدياركان لهجة البساطة و البهاء .الجميع يتيح مكانا لنضع "أنور"، لقد تغلب كبر قلوبنا و اتساعها على ضيق حجرتهم .

تركت "أنور" مع "سفيان" ليضمد جراحه و يوقف نزيفه، و اتجهت مسرعا نحو "يعقوب" لأرى الحال الذي آل إليه بمغيبي. ربط يعقوب بأسلاك حديدية رقيقة جدا تسببت له بحروح بكل جسده بعد أن أغلقوا فمه.

كانت الأرضية مبتلة و أرجله تلامس الماء البارد ,كان يهز رأسه و يغمض عينيه بالشكل الذي يخبرني به أنه بخير.كان يكابر رغم كل أوجاعه بوجه عجز عن الثبات...بوجه ملّ المكابرة و ودّ الإستسلام.

"أنور" و "سفيان" و حتى "يعقوب" الكل بحالة مزرية هنا. العم جابر بالجهة المقابلة توفي منذ ساعات و لم يقدر أحد على البوح. لا مكان لشخصين بدله. دخل جنديان مسلحان يلكمان "يعقوب" تارة و يصعقانه تارة أخرى. حاول الجميع إبعادي عن الشرفة المطلة على الغرفة لكن لم يقدر أحد، قطعة مني كانت هناك و لم أقدر على تحمل صراخه

لاحظ الجنود انفعالي فعلما أن لي صلة ب"يعقوب" تفوق صلة التراب السوري

سُقتُ مغمض العينين نحو المجهول لتفتح عيناي على زنزانة انفرادية، شلِحَت ملابسي و و وطأت أراضي صاقعة فاقت صقيع قلبي. على مقربة مني شاب بلباس ملطخ بالدم يتوسد ذراعيه بأطراف ملتصقة علّه يدفئ نفسه...جلست أنتظره ليفيق و يخلصني من هذه الوحدة.

بالضفة المقابلة "سعاد" زوجة الأخ "سفيان" الذي لم يكتمل عرسه. هي الأخرى بزنزانة انفرادية مع شاب آخر، نائم هو الآخر

وجدت مسمارا صدئا، حملته و رحت أخط على الجدران لأملئ فراغ هذا المكان

رحت أخط كلمات متناسقة "حرية" "حرية".

يبدو انه لا هدوء في الهدوء،و لا راحة في الاتساع كما ظننت. قطرات الماء حفرت رأسي، الحنفية التي تعمدوا تركها مفتوحة لتزيد هلوساتنا.

اقتربت ببطء و دنوت من الشاب، لا أثر لحركة الهواء في صدره، بصوت مبحوح قريب للبكاء :

\_ انه ميت يا أخي و الذي معي كذلك ...قالتها سعاد بنبرة تشبه الموت.

كنا نحن أيضا أموات، لكن بشكل آخر، بشكل أكثر وجع

أحسسنا بالبرد و الحيرة و العجز، و بت اشتاق للاكتضاض الذي كنت فيه

أكل التفكير رأسي ، ما الذي حل بالكل يا ترى؟

\_ما الذي سيحدث بعد يا أختي؟

\_سيستجوبونك و يرغمونك على قول ما يريدون لا أكثر ولا أقل

جلست جانبا بكثير من البرد و قليل من الأمل أنصت لصوت قطرات الماء، أشتم رائحة الموت أتمعن جدرانا سوداء مبقعة بالحرية.

جُرّ "أنور رفقة "سفيان "للغرفة المقابلة ليوضعا هما الآخران بالانفرادية

كان "أنور" الأسوء حالا بيننا

"أنور" :

\_كيف حالك يا محمد؟

\_دعك مني، كيف حال "يعقوب" أيزال حيا؟

 إنه فاقد للوعي، لكنه ما يزال على قيد التنفس،لا حياة لنا نحن نتنفس فقط.

"سفيان" بعد رؤيته لخطيبته لم يكن هناك داع للسؤال عن حاله، كنت لأتحمل كل هذا و أحظى بساعة واحدة أرى بها "حياة".

عبئ الحياة ينقص عندما نتقاسمه مع من نحب

كانت "حياة" مقاسمة غرقي و لوح نجاتي، نافضة غباري و جامعة حطامي. لكنها ذهبت و أخذت كل هذا.كانت حبي الأول و لعنتي الأولى، حطامي الأول و مبسمي الأخير

الثانية عشر بعد منتصف الليل

 دخل عشرة جنود مسلحين، يتقدمهم كهل ضخم البنية، مفتول العضلات، انه نفس الشخص الذي يسمي نفسه بعزرائيل.

انقسم الجنود و دخل كل ثلاثة زنزانة كل واحد منا .أما الجندي العاشر فقد كان يحمل صينيات الأكل و يضعها بكل زنزانة ...تقدم الملقب بعزرائيل و دخل زنزانة "أنور" و قال :

\_حكمت عليك المحكمة الإلهية بالنوم مقلوبا .

خرج ساخرا و تقدم الضباط الثلاثة لينفذوا الأمر ثم دخل زنزانتي قائلا:

 \_أما أنت فقد حكمت عليك المحكمة الإلهية بتناول فضلاتي.

 و تبول بالصحن و بزق بقارورة الماء.

 ثم تقدم الجنود الثلاثة ليجبروني على الأكل. خرج من زنزانتي متجها نحو "سفيان": \_حكمت المحكمة الإلهية تزويج زوجتك أمام عينيك.

 تقدم الجنود نحو زنزانة "سعاد "و أغمضوا عيناها و ربطوا أيديها و بدأوا بضربها و التحرش بها على مرأى من أعين "سفيان"، كانت زهرة ربيعه تسرق أمام عينيه، اغتصب وطنه للمرة الثانية امام عينيه .تقدم خارجا نحو الممر مرددا:

\_ حكمت المحكمة الإلهية بالعمل الشاق لمدة ستة أشهر..

قُلِّبَ "أنور" على رأسه طول الليل ، وكلما فقد الوعي يرش بالماء لكي يبقى على قيد الإحساس بالألم، لكنه لم يتألم بقدر "سفيان" الذي كان يرى ملامح ٱنثاه متناثرة على مرأى من العدو، كان يصرخ من الألم حتى بح صوته، أما أنا فلم أعد أهتم بالألم و لم يعد بوسعي الصراخ.

كان الضباط يتناوبون على ضربي بعصى مسننة, وربطت يداي للخلف ثم تبولوا فوقي

استمر الوضع حتى الثالثة فجرا...كنت اسمع صوت الآذان تمام استسلامي,و كأن الله يذكرنا بوجوده.

كنت ملتصقا بالأرض غير قادر على الحراك أتقيء دما و أتبوله أيضا,لم يسمع صوت "انور" منذ ساعات ، وحده "سفيان" من لم ينقطع صوته أبدا. لقد عرفوا نقطة ضعفه و استغلوها جيدا..

ساعة لا اعلم توقيتها جيداً...

 دخل الجنود مرة أخرى و فكوا وثاق ""أنور" ثم رشوه بالماء ليستعيد وعيه، و رموا بأقمشة لسعاد لتغطي نفسها ، ثم أخرجونا مكبلي الأرجل بسلسلة حديدية موحدة و ربطوا أيدينا و أغمضوا أعيننا لنفتح نظرنا على مكان واسع، فؤوس بكل مكان و مهمتنا الحفر دون توقف.

كانت أرجلنا الثلاث مكبلة و تعيق حركتنا, فما إن يتحرك احدنا حتى يجر الآخرين معه

كان جنود النظام فوق رؤوسنا يحتسون القهوة و يزيلون روتينهم و مللهم بضربنا طول اليوم حتى يحل المساء لنرجع للغرفة الفخمة ذات الإنارة الضعيفة و سنفونية قطرات الماء التي حفرت رأسنا أمام جثث متعفنة تفوح ساحبة الهواء من أمامنا.نجلس لنناظر السقف نناظر كلمات الحرية التي نقشناها بالجدران تحت أنغام الأخت "سعاد", كان صوتها دافئا جدا يشبه دفئ الديار، يمنحنا الأمل و يزيل الألم الذي كانت تتخبط به. لم تتحدث إلينا بعد الحادثة أبدا، كانت تتغنى بالكفاح، تارة بالحب و تارة تطربنا حزنا.

جلسنا نناظر الوقت الذي توقف عن الحراك، اشتقت للخالة سلطانة اشتقت ل"سام" أيضا

اشتقت للزنزانة الجماعية و ٱذان العم غسان ...تكبيرات تصم الآذان، يبدو أن أحدا آخر قد تعفن هناك.

زج شابان آخران بالزنزانة و لابد لنا اليوم من صم آذاننا عن صراخهم، لابد لهم من أن يقابلوا عزرائيل كما يسمي نفسه.

بنفس الوقت جاء قرار إخلاء سبيل الأخت "سعاد" التي لم تحرك باسمة و هي تترك قطعة من قلبها لهذا الجحيم و هذا الصقيع ...لم تضحك و لم تبكي أيضا. كانت أشبه بقطعة من الجليد .فقدنا ملحنة الأمل اليوم أيضا، لا مزيد من الأغاني الفيروزية.

تمتم "سفيان" بكلمات غير مفهومة أسقط بها أدمع "سعاد" و فك بها شيفرة بسمتها التي عَلَلتْ مُحياها. لابد أنها لغة الحب التي لا يتقنها الا كل اثنان عاشا معا بقلب واحد

أن تحب فتاة ...عليك أن تختار لها إسما لا يعلمه غيرك

"أنور" بصوت ساخر

 \_علينا تعلم هذه اللغة لنفر من هنا

رد "سفيان" :

 \_كنت أخبرها هذا أمام الجميع منذ سنوات سابقة ولم يفهم احد ذلك، مفاده أننا سنلتقي مساءا عند الشرفة لكن اليوم لا أظن أن لنا خلاصا من هذا، لا مجال للقاء مرة أخرى \_أين التقيتما سألته متلهفا :أحب سماع هذه القصص

\_التقينا في مقهى أبيها عند مفرق القرية لذلك كانت دائما تغني لفيروز,كنت اعمل بقهوتهم نهارا و أحرس شرفتهم ليلا

صمت الجميع تحت غناء الأخ" عبد الرحمان": يا الورق الأصفر عم نكبر عم نكبر...

طرقات البيوت عم تكبر عم تكبر... تخلص الدنيي و ما في غيرك يا وطني... بظلك طفل صْغَيَرْ

\_ها، ما الذي حدث بعدها؟

\_ خطبتها من أبيها فقبلت بعد إصرار شديد مني.

\_يبدو انك أحببتها أولا

\_ نعم أحببتها جدا. أحببت صعوبة الحصول عليها... من فرط برودة يداها برد مرادها أيضا... كانت شيئا أشبه بالجليد تغار بصمت و تعجز عن التعبير تضيع في زحمة الكلمات, لا تعرف أي كلمة تختار فتنهي الاحتيار بـ" لابأس". دفن بعيناها غبار كثير رماد لا حصر له... رماد تتكحل به الأخريات ليزددن فتنة ,لكنها كانت جميلة جميلة للحد الذي لا حد له... جميلة ببساطتها و عفويتها بشعرها و بأظافرها المعتدلة الطول برمشها و حاجباها اللذان لم تلمسهما يوما, أحببتها بألوانها السوداء و الرمادية و عشقت عطرها الذي ما شمتته بغيرها... أتراه يصنع من اجلها لوحدها أم انه ماركة غير معروفة؟

 كل ما عرفته انه جميل، لم اعرف للان أهي من زادته جمالا أو هو من فعل ...أحببت كوب القهوة من يداها أحببت صوتها و شجاعتها عشقت صرامة عيناها... كفاحهما ضد البكاء ...عشقتها لأنها كسرت الطقوس الأنثوية هي لا تبكي...لا تخاف...لا تحب...أحببتها رغم برودة يداها.كان علي ان اصدق من الأول أننا لن نكون معا أبدا.

عصمت أعيننا صباحا ككل يوم برفقتنا الشباب الجدد "عبد الرحمان" "خالد" و "يحيى"

كنا نحفر حفرا لا نعلم هل كانت ستكون قبورا يوما او أننا سنرمى كسابقينا في مكبات القمامة أو في غرف الاحتجاز الانفرادي لنرعب أبناء وطننا القادمين.تقدم الملقب بعزرائيل، يشتم الجميع، الجميع بالأيادي المكبلة

تقدم نحو "عبد الرحمان" :

 \_من يحكم المحكمة الالهية؟

 "عبد الرحمان" ذو الثامنة عشر الأصغرنا سنا بصوت مرتجف:

 \_أنت

 ضحك و تقدم نحو "خالد" معيدا نفس السؤال.

 رفع "خالد" سبابته مشهدا. ففك وثاق رجليه و جره من السلسلة و أخذ يضربه بعصا مسننة و يعيد السؤال،لكن جواب "خالد" لم يتغير، ظل يكبر الله حتى انقطع صوته و غادر للرفيق الأعلى.

تقدم الجندي لرفيقهم الثالث "يحيى" طارحا نفس السؤال, فكبر بكل ما أوتي من صوت

 ليلقى نفس ما لقيه "خالد" قطعت سبابته هو الآخر و أُذيبت فوقه قطع من البلاستيك لتحفر جسده, ثم رمي بنفس الحفرة التي حفرها.

جاء دوري رفقة "أنور" و "سفيان" لنختار الجواب الأجبن و الطريق الأقصر للنجاة.

ٱصيب "عبد الرحمان" بهستيريا لم يقدر على تجاوزها، في بلدي تتحطم الأحلام في سن الثامن عشر، لا ربيع لأعمارنا، نحن نحيى خريف أعمارنا من النظرة الأولى التي نلقيها على الحياة.

جاءوا لنا مساءا بوجبة العشاء لكنهم لم يتبولوا بها، اختاروا وضع أصابع رفاقنا كمقبلات للطبق ,لم يكن هذا فقط، "عبد الرحمان" اعتاد على هذا المنظر يقول :

\_إن أحد المعتقلين بالغرفة السوداء قطعت كل أصابعه و ألقيت بالغرفة الجماعية ليلقى حدفه بعدها.

 تجمدت أنا و "أنور" و لم يعد بوسعنا الحراك

ركضت بلا وعي أركل جدران الزنزانة :كيف كان شكله؟كم كان عمره؟

 انهار "أنور" ساقطا على رجليه :

\_انه "يعقوب" يا "محمد" انه هو.

لم أعد أفكر في الهروب أبدا، كيف سأخبر الخالة سلطانة أن وحيد إنجابها قد توفي.

كيف لي أن انتزع بسمتها للمرة الثانية. لم اعد أريد الخروج، كان كل مسعاي أن أدفن هنا، في المكان الذي لا يعلمه أحد و الذي لا يبحث فيه أحد..

أسميته وتيني و ضاع مني لا اعلم كيف لقلب أن يعيش بلا وتين... و كيف السبيل ليعيش الفرد بلا رفيق.

نهضنا صباحا لنحفر قبورنا من جديد، بعد ما يقارب النصف ساعة قدم جندي الموت يجر كهلين آخرين ربطهما مع "عبد الرحمان" و بدأ بسؤاله المعتاد ,أجاب خمستهم نفس الجواب السابق الذي يضمن بقائهم، لكني لم أقدر على تجاوز مشهد البارحة و فقدت السيطرة على نفسي مهللا مكابرا ساعيا للاستشهاد.

فكت أقدامي و جررت من أعلا عنقي نحو طاولة الشاي. جردت من ملابسي و ربطت ربطت أطرافي الأربعة و سئلت للمرة الثانية بعد كم وافر من الضرب بنفس المطرقة التي أودت بحياة رفقائي و مقاسمي آلامي.

كنت أشعر بآلام لا حصر لها بكل أنحاء جسدي. تلك البقع الداكنة لم تكن قادرة على وصف شعوري لكن دون جدوى ...روحي تأبى الخروج.

لم أعلم ما هو مصيري بعد هذا...في الحقيقة لم يرجع اي ميت ليخبرنا بما جرى.

جاء أحد الجنود بعلبة من الكبريت، كان يضعها على صدري و يخط بها "عزرائيل"

ثم سئلت للمرة الأخيرة، لكن دون جدوى...

ليقوم بعدها بإضرام النار على صدري ساخرا مني على وقع صرخاتي اللامتناهية التي انتهت بفقداني للوعي.

فتحت عيناي في غرفتي التي لم تعد موحشة... حتى قطرات الماء لم تعد تؤرقني

الكل يصرخ:

\_"محمد" أأنت بخير؟

\_على أحسن ما يرام ,ههه لم أمت بعد.

اعتقدتها الضربة الٱخيرة لكنها كانت مجرد خدش كسابقاتها هذه الروح ترفض الخروج ترفض الاستسلام. إنها تتمسك بهذا الجسد الهزيل المشوه و الذي صار إطارا لصورة "عزرائيل" التي لن تزول أبدا ,أهدوني وشما أبديا يأبى الزوال مثل روحي تماما.

"عبد الرحمان" \_أنغمنا على ذوقك لو سمحت يا

\_دندن قائلا:

نقابل ناس نفارق ناس و ماشية الحياة عادي، حال الدنيا بييتغير ما بين الثانية و الثانية حنعمل ايه، و دا جارح و دا مجروح و دا عايش على االماضي و أحوالنا دي بتحير و لو نرضى حتحللنا بنزعل ليه، و مين الدنيا دايمالو محدش ضامن الأيام...

كنت أمتع مسمعي و أحلم بالحرية,الحلم الذي يصعب تحقيقه .كنت أقف على ناصيته لكن لكني لا أقاتل. أقف لأناظر ضياع نفسي دون أدنا رغبة في إنقاذها.

كنت أود العثور على الطريق الأقرب للموت، لم لأود الهروب مثل "عبد الرحمان" الذي اشتاق لامه و مثل "أنور" الذي ينتظره رفقائه و لا حتى مثل "سفيان" الذي تنتظره "سعاد"كنت أجول على خارطتي وحيدا دون أيدي.

لم يتبقى لي سوى الخالة سلطانة التي لن أقدر على مقابلتها و القول أني أضعت وحيدها

توقف "عبد الرحمان" عن الغناء و صمت الجميع وسط صراخ نَسَويٍّ، ظن الجميع أنهم يعذبونها ليلحق بعده بكاء أطفال...بكاء بصوت صغير، يبدو أنه مولود جديد ولد وسط زنزانة من حديد.لا...يبدو أنهما اثنان لقد كانت نغمة الحياة التي يصرخان بها مضاعفة

ارتسمت البسمة على أوجهنا دون وعي منا،لقد مر وقت طويل لم نشتم به رائحة الحياة

لقد مللنا حقا رائحة الموت، و كأن الله يرسل لنا رسالة مفادها أن الحياة تستمر و أن الفرح لابد منه رغم مرارة الألم الذي نعايشه.

تجدد نشاطي و رغبت بالحياة أكثر، كيف لصوت واحد أن يعيد رغبتك في الحياة؟

\_ ما رأيكم بالهرب يا رفاق.؟

ضحك الثلاثة معا:

؟ \_و أخيرا اقتنعت

أعددنا خطة لا مجال لفشلها، فإن نجحت حضينا بديار الدنيا و اذا ما امسكوا بنا حضينا بالديار الدائمة.

رحنا نحفر صباحا و نحن نودع الفؤوس التي لن نعود لها أبدا، تقدم "عزرائيل" متسائلا كالعادة ليفاجئ بالإجابات التي يود سماعها.

 حملت الفأس في عز انشغال الجنود و كسرنا السلاسل التي تربطنا لتتحرر أرجل الجميع، لكننا ظللنا ملتسقين ببعض لكي لا يلاحظ أحد ذلك .

حان وقت الغداء، الوقت الذي يغادر فيه الجنود ليجيء بدلهم آخرين. هذا ما كان يحدث كل يوم، بقي جندي واحد مسلح ليحرسنا، إقترب منه "عبد الرحمان" ليشغله بالكلام ثم وجه له "سفيان" ضربة بالفأس نحو رأسه ما أسقطه أرضا، لكن رغم نزيفه لم يفقد الوعي و أطلق النار عشوائيا.توقفت عربة الجنود و نزلوا مسرعين ليلحقوا بنا، كنا نجري نحو

 الجهة المقابلة وسط مطر من الرصاص و الضرب العشوائي .أصيب "أنور" بثلاث طلقات ...الأولى بكتفه و الباقي استوطنوا صدره، الصدر الذي بكيت عليه يوما. سقط "أنور" يكبر الله و عيناه نحو السماء و ثغره ضاحك، أظن أن الجميع كان باستقباله، لطالما أحببني أكثر من "يعقوب" فاختار الخلود معه بدل الهرب معي.

تركت "أنور" ملقا على التراب الذي مات من أجله، و ركضت أجر "سفيان" الذي أصيب برجله.

جرينا أميالا لا حصر لها، حتى ما عدنا نسمع أصوات الرصاص. ضمدت جرح "سفيان" و نزل "عبد الرحمان" للطريق آملا في استوقاف سيارة تحمل زاد أوجاعنا..

بعد محاولات كثيرة توقفت سيارة حملنا بها "سفيان" الذي لم نطمع بعيشه أكثر بعد الكم الهائل الذي نزفه .اتجهنا نحو المستشفى و بعد كفاح طويل اعتاد عليه "سفيان" استطاع تجاوز هذا أيضا.

كنت ألملم شتاتي بعد خسارتي "أنور" و "يعقوب" كنت اُعِد مئات المقدمات لأخبر الخالة سلطانة التي أوْدعته أمانة عندي ."عبد الرحمان" لم يستطع الانتظار و ذهب سريعا ليلاقي أمه، شوق الأمهات لا يخمد أبدا. أما أنا فقررت البقاء مع "سفيان" لحين قدوم "سعاد".

السابعة مساءا

قدمت سعاد رفقة "عبد الرحمان" تركض في أنحاء المسجد باحثة عن زوجها، "سعاد" ذات الأعين المقاتلة اليوم تهطل أعينها دمعا، و كأن الصنديدة التي تقطنها لم تعد هنا، عادت لطبيعتها الأنثوية الخائفة الباحثة، تحضن "سفيان" و تقلبه، تشتمه و تحسب جراحه. استأذنا بالخروج نحو الباحة، كانت أعين "عبد الرحمان" تشع فرحا يحكي تفاصيل استقبال أمه له .مشينا نحو القرية أفكر... من سيستقبلني أنا؟ كيف سأواجه الخالة

 سلطانة؟

\_ "عبد الرحمان" هل تعرف أغنية فيروز؟

 \_أي واحدة بالضبط؟

التي تقول فيها: قديش كان في ناس...

\_ آه اجل أمي تحبها أغنيها لها دائما .

\_غنها

\_ قدش كان في في ناس عالمفرق تنطر ناس... و تشتي الدنيي و يحملوا شمسية... و انا بأيام الصحو... ما حدا نطرني .

كانت تمثلني بشدة، كل العالم و ضجته لم أمتلك منه حتى القليل .كان العالم مزدحما و أنا لوحدي .دخلت القرية يبدو أن الكل نائم، دخلتها بحذر و ببطء .كنت خائفا من الديار... من الذكريات و الخسارات.وقفت عند باب الحديقة مطولا أفكر في الرجوع أدراجي..

حتى صرخت الخالة سلطانة:

\_"محمد" يا ولدي .

احتضنتني الخالة سلطانة بقوة، بقوة الأهل والأصدقاء، بقوة الديار. خارت قويا و سقطت جاثيا على ركبتاي، بعد زمن طويل شعرت بالألم و كأن جميع ما بيّ من ٱلم، عاد لي الإحساس و شعرت و كأني طفل صغير عاد لحضن أمه يبعد غياب طويل.

\_ أين كنت يا ولدي، خلتهمِ قتلوك مثل "يعقوب".

 تجمدت مكاني و لم أعلم ما أقول، من الذي أخبرها و كيف تجاوزت ذلك .

\_كيف علمت يا خالة من الذي أخبرك؟

\_لنتحدث بالداخل، هيا.

دخلت غرفة الجلوس، الكرسي... كرسي أمي ما يزال مكانه، و الآن صار كرسي "يعقوب" فارغ أيضا. بتنهيدة كبيرة:

. \_لقد وجدنا جثته مرمية على مقربة من باب القرية

لقد كثر شيب الخالة سلطانة... كيف لهذا الوجع أن يزيد من عمر الإنسان بهذا الزمن القصير؟

\_عليك الاستحمام يا ولدي، و تغيير ملابسك، خزانة "يعقوب" مازال بها الكثير..

نهضت من مكاني متجها للجهة المقابلة للحديقة لأملئ الدلاء، كان الضوء خافتا و الكرسي المهتز وسط زرع الخالة سلطانة محجوزا، لم أتمكن من الاقتراب كل ما رأيته فتاة ترتدي حجابا و تحمل كتابا تقرأه .عدت أدراجي لأطلب الماء من الخالة سلطانة... بصوت ضاحك : تعال... مريم ابنتي لدينا ضيف...

 لم أتمكن من رفع رأسي، حتى شعرت بأيادي تتشابك وراء ظهري و تضمني بشدة. بصوت نسائي رقيق:

\_" محمد"" محمد" لم أتمكن من رفع رأسي لكنه نفس الصوت الحواس لا تخطئ أبدا.. إنه صوت "سام " رفعت رأسها و انتشلته من صدري الذي تغطيه تلك القطعة البالية المملوءة بالدماء... إنها "سام" حقا. احتضنتها كقطعة مني .وجودها كان يطفئ جمرة صدري الموشوم.

كانت الكثير من الأسئلة برأسي كيف وصلت إلى هنا، كيف عرفت المكان، و ما الذي تترتديه... لكني لم أسأل، انا فقط فرح لإيجاد شيء يخصني هنا.

أخذت حماما دافئا بعد كم غزير من المياه الباردة التي كنت أرش بها يوميا، ارتديت ملابس دافئة خالية من رائحة الدماء، و شربت كوبا دافئا من الشاي بين أحضان أمي الثانيةاستمع للقصة الغريبة

ما سر اسم "مريم"؟ "سام"\_

 \_يا ولدي بعد أن تلقت رسالتك، احتفظت بالعنوان و بحثت عنك ، لكن تصادف يوم قدومها مع يوم ذهابك، لقد كنت بحالة مزرية حقا، وقفت بجانبي و رفضت المغادرة و تركي بتلك الحال قالت أنها ستؤجل الرحلة أسبوعا آخر,و أصبحت بذلك رفيقة زرعي الجديدة، كانت تشاركني إعداد الطعام و الاعتناء بالزرع و تعلمت صنع الشاي، كما انها كانت تضبط هاتفها لتوقضني صباحا للصلاة رغم أنها لا تفقه عنها شيء.

قدم موعد رحيلها و خبئت أدمعي كالعادة لكنها عادت بعد عشر دقائق تقول أنها لم تقدر المغادرة، كانت هدية الله لي و مؤنستي و مزيلة وحدتي بعد غيابكما .

مرت الأيام و هي تسأل عن ديننا حتى ايقضتني يوما على الساعة الثانية فجرا تقول "لا اله إلا الله محمد رسول الله".علمتها الصلاة، و قررت أن يكون اسمها "مريم". لم أكن افهم كل ما تقوله لكنها كانت تكتب ما تريده على الهاتف لتنطقه امرأة بعد ترجمته، و استطعنا بذلك التعايش معا.

رحت أسمع كل هذا ناظرا للباس الفضفاض الذي تلبسه، عجبا بعض الحب يقود للجنة اتجهنا صباحا ثلاثتنا نحو المشفى لزيارة "سفيان" انه أحسن حالا مما سبق، بعدها اتجهنا للمقبرة، كان تراب أمي و "حياة"، و على جانبه قبر "يعقوب" الذي قُدّرَ له أن يدفن كما تمنى بالعلم السوري وسط تكبيرات أهل الحارة، لم ترمى جثته في مكب القمامة، لم يحدث الشيء الذي خشيته... كان ترابهم مبللا كما نما به زهر جعل منه قطعة أشبه بالجنة

\_يبدو انك تزورينهم كثيرا.

\_نعم كثيرا، لكن "مريم" من تعتني بالأرض.

لم أتعود بعد على اسمها الجديد و لا على لباسها حتى، صارت أكثر خجلا و حرمة، هذا هو الحال عندما يعتنق شخص فكرة عن قناعة.

ثلاثة أشهر كانت حياتنا روتينية... أعدت افتتاح صالون الحلاقة الذي يعود لزوج الخالة سلطانة، امتهنت مريم المهنة التي أحبتها " المحاماة" و كانت تخضع لدروس اللغة العربية التي احترفتها بسرعة فائقة، "عبد الرحمان "عاد ليزاول دراسته من جديد، و بعد

 أن عادت حياتنا لنصابها أسبوع يفصلنا عن حفل زفاف الأخت "سعاد" من" سفيان"

استطعت الاستمرار لكني لم أتمكن من التجاوز ...

أحلام ما أزال أراها كل يوم، ما أزال اصرخ بنفس الألم كل يوم،...لكن ليس بقدر الوجع لقد وجدت أيادي تربت على رأسي يوميا. كانت الخالة سلطانة تسهر على رأسي تربت علي حتى أنام كطفل في مهده في أيامه الأولى .

\_"محمد " لي عندك طلب يا ولدي.

\_ طلباتك أوامر يا خالة.

\_ أريدك أن تتزوج، أريد رؤية من يحمل اسم "يعقوب" هنا كما أن الكلام قد انتشر و ما

عاد بوسعك البقاء بنفس المنزل مع "مريم" دون زفاف .

بعد صراع طويل ضد رغباتي... سيقام عرس جماعي الأسبوع القادم مع الأخ "سفيان لقد قدمتا الكثير لي و لم أتمكن من رفض أي طلب لهما .

أيام من التحضيرات...و تحت وقع الدبكة السورية أمسكت قبضة "مريم" راجعين للبيت، اليوم الذي طالما اعددت تفاصيله رفقة "حياة". لكنه الوقت اللازم للنسيان و البدء من جديد.كل ما بالامر اني خفت جرح مشاعر "مريم " خفت إسكانها قلبي...إنه مكان بارد جدا على شيء لطيف مثلها...لكنها نجحت ي استوطان صدري المعتم , لم تمانع بالنوم وسط ذلك الخراب و العلامات ...اتخذته موطنا لها رغم الخدوش.

بعد ثلاث سنوات

اليوم أنا راجع من العمل لتستقبلني طفلتي "حياة" ذات العامين و التي أسمتها أمها "مريم" بهذا الاسم، اقبل جبينها و احملها مسرعا لأتناول محاشي الخالة سلطانة.

"سفيان" رزق بولدان رغم أنهما توأمان إلا أنهما مختلفان، احدهما أسماه"يعقوب" ليصبح مدلل الخالة سلطانة و الآخر أسماه "أنور"، و اليوم نحن نعد لحفل تخرج "عبد الرحمان".

الحياة عادلة، منحت حبا لم أتوقعه يوما ...اعتصرت مصائب الدنيا لتعطي لي رفيقان لا بديل لهما، و أما لم تنجبني... و زوجة لم اكبر معها.

اليوم اكتب كالعادة ...

 أكتب برقيتي الأخيرة ...اكتبها اليوم للحزن, للتهميش ,للاكتئاب... لا اكتبها للأشخاص لا أودع بها أحدا.

أنا اليوم أودع الأيام الهشة التي عشتها بصدر قوي رغم التشويه.

لك مني أيتها الأيام السود "برقية وداع".

الكاتبة :

ابحث عن فرصتك إنها في مكان ما من هذا العالم.

هذه نهاية أخرى لبذرة أمل ,من بين الركام أزهرت

و نهاية فصل آخر من الحزن و بداية ربيع آخر.

النهاية

لا أحب مراسم الوداع... و لان من يذهب بلا وداع يعود لن أودعكم و سنلتقي في الفصل الثاني.

فصل إنتاش بذور من بين الركام ٱزهرت

ابحث ...ستجد نفسك في سطر ما

***الى اللقاء***

***الفهرس***

**الفصل الأول :**

من على حافة الموت

بـــــــرقيــــــــة وداع

**الفصل الثاني :**

توحـــــــد

أحبني أبي

***الفصل الثالث :***

انــــــــــــــفــــــصام

 لأصحاب الأيادي الباردة أكتب

**الفصل الرابع :**

إبصار

ثمرة حب واهم

***La Sirene***